



حُلم غير قابل للكسر

(مختارات قصصية)

ليلى العثمان

اختيار وتقديم : حسين عيـد



الهيئة العامـــة
لقصور الثقافة

آفاق عربية

حلم غير قابل للكسر

مختارات من قصص

ليلى العثمان

اختيار وتقديم : حسين عيد

الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق عربية (70)
(شهرية) - سبتمبر / 2003

حلم غير قابل للكسر

* ليلى العثمان
* مختارات قصصية

المراجعة اللغوية : عادل سميح
تصميم الغلاف : محمد بغدادى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٣
رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٥٦٩٧
الترقيم الدولى :
I.S.B.N: 977 - 305 - 575 - 2

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١٦ (أ) ش أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

الطباعة والتنفيذ
الشركة الدولية للطباعة
المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩
شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
ت : ٨٣٣٨٢٤٠

عن الكويت القديمة والحب والواقع الجديد !

بقلم : حسين عيد

للكاتبة الكويتية ليلى العثمان تسع مجموعات قصصية ، هى : «امرأة فى إناء» (1976) ، « الرحيل » (1979) : « فى الليل تأتى العيون » (1980) ، « الحب له صور » (1982) ، « فتحية تختار موتها » (1987) ، « حالة حب مجنونة » (1989) ، « تى تى حكاية قصيرة » (1992) ، «الحواجز السوداء» (1994) ، « يحدث كل ليلة » (1997) . كما أن لها أربع روايات هى : « المرأة والقطة » (1985) ، « وسمية تخرج من البحر » (1986) ، « المحاكمة » (2000) ، و « العصعص » (2002) . وذلك بالاضافة إلى كتابى يوميات .

هذه القصص « مختارات » من مجموعاتها القصصية « التسع » ، توزعت بين « بعض » من أهم « محاور » عالمها ، وهى : الحنين إلى عالم قديم ، وعالم المرأة ، وقضايا الواقع !

* * *

الحنين إلى عالم قديم

رافد أساسى تخلل معظم إنتاج ليلى العثمان ، هو هذا الحب العميق والجارف لعالم الكويت القديمة . الذى يتبدى ، حين تستعيده فى قصصها ، حيًّا نابضا متألقا شديد العذوبة ؛ لذا نجد فيه بعضا من أجمل قصص الكاتبة ، بل من أبدع القصص القصيرة بوجه عام ، وأذكر للمثال قصتين : الأولى قصة « الطاسة » ، من مجموعة « الحب له صور » (1982) ، وهى تحكى عن رحلة أم وبناتها تصاحبهن الجدة ، إلى البحر خلال غياب الأب ، لتحنية شعر البنات وغسله بمياه البحر ، والأم لحرصها الشديد على طاسة الحناء الذهبية ، (التى تمثل مهدها ورأسمالها إذا ما فقدت الزوج) ، تأخذها معها فى رحلتها ، فإذا هى تتحرك من تحتها ، أثناء غسيل شعر البنات ، مع الموج لتغيّبها مياه البحر ، والأم تصرخ وتضرب صدرها حزنا لفقد الطاسة !

لغة هذه القصة بسيطة ، سلسة ، ينساب تيارها برقّة موج البحر واندفاعاته المتتالية . وفيها ذلك الألق الأسرى والجو الشعبى مصورا بصدق . وفيها أيضا ، رسم للشخصيات : الجدّة بحنانها وحدبها على البنات وذكرياتها وحكاياتها للبنات ،

وهناك الأم بقلقها وحرصها على الطاسة وكأنها مصباح علاء الدين السحرى ، وفيها مرح البنات وانطلاقهن . وفيها زخم المكان القديم وعاداته وتقاليده . كما يتجلّى فيها جوّ الرحلة الإنسانية الأليفة إلى البحر ، كما الحياة ، حيث تنتزع أمواجه الطاسة (الحلم) ، وتغيّبها بين مياهه ،كأنها يد لقدر ، وهى تحاول أن تنبّه الإنسان من حلمه الأزلى ، بأن السعادة ليست فى الذهب ، وإنما هى موجودة بيننا دون أن نحسّ بها ، فى البنات وحيويتهن ومرحهن ، وفى ألفة التجمع الأسرى . وهى الحقيقة التى تعرفها الجدّة بحكم عمرها ، وغابت عن الأم لنقص تجربتها وجسامة مسئولياتها !

أما القصة الثانية ، فهى قصة « ويبقى الصوت حيًا » ، من مجموعة « فتحية تختار موتها » (1987) ، فهى قصة مأساوية ، تمتزج فيها الحكاية بالموال الشعبى . وفيها توازن رائع بين رحلتين : رحلة الأم الثكلى بصوتها الذى تتدفق فيه الكلمات شجية ، أسيانة ، تتفجر حزنا ، ورحلة البشر المواكبة خلال ثلاثة أيام بصوتها الخاص ، حين ترصد فى اليوم الأول حركة البشر فى الحى القديم بكلمات بسيطة عفوية ، ترسم أدق التفاصيل ، بينما سيدات الحى كدأبهن ، يحاولن استكناه حقيقة

الصوت ، الذى ينوح ، حتى تتكشف الحقيقة ، فى اليوم الثانى ، بالصدفة بواسطة طفل وأخته خلال رحلة ذهابهما إلى مدرستهما ، (وكأنها رحلة الإنسان فى الحياة) ، وحتى يعوّضان تأخيرهما يسلكان طريقا مختصرا يمرّ بالحوطة ، ويظن الطفل أنه عثر على كنز (أوليس هذا هو حلم البشر منذ الأزل بالكنز الموهوم ؟!) ، فيفاجأ بجثة طفل ميت (أوليست هكذا هى الدنيا تفاجئنا بما لا نشتهى؟!) ، فينتشر الخبر فى الحى بأكمله (ولم يكن مقدرًا أن تنام هذه الحكاية كما نامت قبلها حكايات) فمع فجر اليوم الثالث أعلنت الأم عن نفسها ، (وصوتها يعلو وينخفض مبللا بالأسى . ممزوجا بنغمات كأنها حدّ السيف يذبح سامعيه :

أصرخ وجمر فى الحشا . .

هذا ثرى وليدى

هذا . . ثرى وليدى)

هكذا انتحرت المرأة على قبر وليدها ، الذى « قتلوه » . وإذا البشر يتحوّلون ، بعد أن أكسبتهم تجربة الموت وعيا جديدا ، فيتعاطفون مع مصاب المرأة الفادح !

* * *

وتعلل ليلى العثمان جنوحها إلى الكويت القديمة بقولها : (البيئة القديمة تعيش فى وجدانى وملتصقة به ، وأحب كل ما هناك ، خاصة ارتباط الإنسان بالبحر قديما وعلاقته به . فأى نسمة من نسمات الماضى أسجلها بصدق وإحساس) . ثم تستطرد : (وهذا طبيعى ، فأنا عندما أكتب عن بيئتى القديمة ، عن تجربتى الخاصة ، يكون الأمر مختلفا عندما (أتقمص) شخصية امرأة تكتب عن المرأة ، فأنا أخرج عن الذات بشكل كبير). (من حوار مع الكاتبة ، نُشر بجريدة الشرق الأوسط فى ٥/ ١/ ١٩٨٨) .

لقد عاشت ليلى العثمان (طفولتها) فى واقع « الكويت القديمة » ببحره الواسع ، وبيوت أغنيائه الفسيحة وأحيائه الفقيرة ، بتقاليده وطقوسه ، بأفراحه وأتراحه ، بحكاياته وأحداث ومصائر بشره . فانفعلت به وتأثرت ، وعانت فيه كثيرا وتحملت آلاما كبيرة ، كل ذلك ساهم فى تشكيل وجدانها وتحديد معالم شخصيتها .

إنه عالمها الخاص ، معينها الذى لا ينضب ، حنينها الذى لا ينقضى . إنه بمعنى آخر « تجربتها الخاصة » مختزلة ، مختصرة ، حيّة داخلها ، ترتد إلى مخزونها كل فترة ؛ لتستعيد بعضًا من ألق ذلك الواقع المندثر ، وتستمد منه تفهما لما

استعصى عليها من معانى الحياة ، وتستبصر من خلاله حركة الدنيا ، ليتدفق - ثانية - حيًا من خلال الكلمات ، متجسّدا فى قصص جميلة ، بل ربّما من أجمل القصص بشكل عام !

هنا ، يتبدى أحد قوانين « الإبداع » ، فكلما اقترب الكاتب « المبدع » من « تجربته الخاصة » ، من عالمه المتميز ، ونهل من نبعه الخصب ، فهو - هنا - ينهل من مخزون مكتمل ، ناضج ، ذاتى التكوين ، لذلك تأتى الثمار ، بشكل طبيعى ، ناضجة ، يانعة ، أصيلة !

عالم المرأة

شغل عالم المرأة محورا مهمًا من قصص ليلى العثمان ، الذى نسجت فيه برهافة حسّ متناهية ، بعضا من أجمل القصص . وأذكر للمثال قصتين : الأولى قصة «موت اللبلابة» ، من مجموعة « يحدث كل ليلة » (1997) ، وهى ذات بناء « دائرى » بديع ، يضفّر علاقة بين امرأة وحيدة ولبلابة متسلقة . تبدأ القصة من نقطة تعصف فيها الريح ويشتد المطر ، وإذا المرأة من « داخل » حجرتها ترقب من وراء زجاج نافذة غرفتها لبلابة ناتئة (من قلب الأرض متسلقة خيطها إلى حافة السطح ، تأملتها ، تفرست بأوراقها الخضراء النامية) ، وكانت (الريح

تحاصرها ، تنتفض كأنثى يطاردها مزاج رجل مجنون ، تحاذى الزجاج تصفقه ، كمن تودّ اقتحام الغرفة بحثًا عن الدفء والأمان) . وإذا المرأة تتذكر حبيبها ، وتحنّ إلى وجوده . لكنها كانت تعى صعوبة تحقق حلم حضوره ، كما أن وراءها التزامات لابد أن تقضيها من « الخارج » رغم المطر العاصف ، فأسدلت الستارة بوجه اللبلابة ، وتأهبت للخروج !

هنا ، علاقة بين طرفين متوازيين ، هما : امرأة ولبلابة ، تبدأ وسط جو عاصف ، كلتاهما تحنان إلى الدفء ، لكن الظروف تفرض أن تستمر معاناتهما . تتوه المرأة فى الخارج فى خضم انشغالها تلبية احتياجات حياتها اليومية .

ثم تعود إلى المنزل ، لتركض إلى غرفتها ، بحثا عن رسالة محبوبها الأخيرة ، وتعانقها ، لتصل إلى نقطة البدء فى القصة حين تفض قماش الستارة ، وتفتح النافذة ، فيكتمل البناء الدائرى . ولكن ما أبعد الفارق بين لحظة البدء والمنتهى ؛ لأنها حين بحثت عن اللبلابة ، لم تجدها فى مكانها ، بل رأتها بأسفل متكوّمة كجثة . و (أحسّت الريح تفتح ثقوبا بكل عظامها فتتكسّر بداخلها الأغصان . انتفضت . تهاوت إلى الأرض ، وأجهشت) هل بلغ تعاطفها معها « كمواز لها » ذلك المدى

البعيد ؟ أم أست لهزيمتها أمام العاصفة ؟ أم اعتبرت ما حدث لها نذير شؤم مما قد تؤول إليه علاقتها ؟!

القصة الثانية ، هى قصت « حلم غير قابل للكسر » ، ذات زمن محدود بفترة قصيرة يقوم فيها قائد سيارة بتوصيل زميلة إلى منزلها ، ثم يصعد بناءً على دعوتها إلى شقتها . كانت الفتاة تعشقه ، وكم تمنت أن يتحقق حلم توصيلها . وحين حدث ، كانت تعتقد أن الفرصة قد حانت له ؛ كى يعبّر عن مشاعره لها ، لكنه ظلّ صامتا . فإذا ما بدأت حوارا سرعان ما كان ينقطع . وحتى بعد أن دعته إلى فنجان من القهوة ، بدا خلال الجلسة كأنه فى وادٍ آخر . لم يكن يشعر بها ، وحين سألها إن كانت تقرأ الفنجان ، رحبت بالفرصة ، لكنها سرعان ما وأدتها ، وبقى أمر عشقها حلما بعيد المنال !

هذه معالجة فنية ناعمة ، رقيقة ، طبيعية . يعبّر الموقف فيها ويوحى ، دون أن تتدخل الكاتبة . هنا طرفان ، أحدهما محبّ ولهان . لكن للحب قانونه المتوازن ، فإذا أقدمت الفتاة على خطوة تحت ضغط مشاعرها ، ولم يحدث من الطرف الآخر ما يواكبها ، توقفت وتراجعت ، وإن حافظت على حبها ، فللقلب كلمته أيضا !

وانظر ، عندما يتداخل محورا « العالم القديم وعالم المرأة » ويتفاعلان ، فإذا النتاج جميل باهر ، وهى ما تجلّى فى قصة « الليلة ترقص شهرزاد » من مجموعة « يحدث كل ليلة » (1997) ، المستوحاة من عالم الكويت القديمة ، والتى تتابع فيها شابة « وحيدة » على أريكة بيتها ، بعد أن تركها الحبيب ، دون أن يلبى رغبتها فى الرقص ، وإن دثّر عنقها « بالشماغ » الخاص به . وكان قد أتاح لها قبل ذلك زيارة مكان يعبق « بالأجواء القديمة » ؛ لسابق معرفته بأنها تعشق تلك الأجواء .

هنا شابة « وحيدة » ، بعيدة عن الحبيب ، لم تشبع رغبتها إلى الرقص ، وإن أشبعت - مؤقتا - ظمأ لا يرتوى إلى عالمها القديم ، الذى يتبدى لها كفردوس مفقود ، فكان حتما أن تنفلت من قيود الواقع ، وتنطلق فى « رحلة أسطورية » ؛ لتدخل « عالما مؤنسا زاخرا بالبدائع والجمال والدهشة » ، وبعد أن تتجول بين أجوائه القديمة ، تستعيد فى مقطع قصير بعضا من ألق ماضيها الخاص ، فترة عبث صبيانى مع طفل من عمرها . وانظر إلى هذا المشهد الجميل ، المستعاد :

(ألوان الفجر . الغابات المطرزة بألوان الجنة . البحر الرصاصى . الرمل الذهبى . ألوان العلب المتناثرة بأنواعها :

مائية ، زيتية ، جواش . بعضها شرب دموع الماء وجف أخيرا ، صار يملك ألوانا حقيقية . بالأمس البعيد كان طفلا يشد على فحمته السوداء ، يرسم على جدار بيتهم القديم شجرة . فأكتب بفحمتى عليها : « الشجرة بيتى » .

يرسم وردة . فأكتب على رأسها : « الوردة عطرى » .

يرسم دلة وفناجين . فأكتب فى حلق الفنجان : « هذه قهوتى ») .

هذه قصة ناعمة ، جاء « الخيال » فيها معبرًا - بعد زيارة واقعية للأجواء القديمة - للقيام برحلة « أسطورية » إلى الماضى العتيق ، كانت السبيل إلى أن تتحرر من أعباء « وحدة » الحاضر ، ومن ثم الانتقال من العام إلى الخاص ، إلى دفء وأمان الكويت القديمة ، فكان ذلك جواز مرور لذاتها ، كى ينفتح الطريق أمامها ؛ لتتحرر من إسار رغباتها الحبيسة ، وأن تنطلق ، فإذا « الشماغ » الخاص بالحبيب يتحول إلى شهريار ، فدعته إلى الرقص ، لتموت كل الحكايات ، ولا يبقى إلا الرقص !

قضايا المجتمع

رافد آخر من قصص ليلى العثمان : تناول المجتمع الحديث

وقضاياه ، سأضرب مثالا له بقصتين : الأولى قصة « يحدث كل ليلة » . . من مجموعة بالعنوان ذاته صدرت عام 1997 ، وهى من القصص القليلة التى يرويها « رجل » بضمير المتكلم ، وهو يعبّر عن مشكلة يعانى منها باستمرار ، والتى بلورها قرب نهاية القصة ، قائلا إنه فى (النهار مضايقات ومحاولات لخنقى فى ذات الزجاجة التى اختنقت بها أعناق غيرى من الضعفاء ، وفى الليل يحدث لى ما يحدث ، وإن كانت وسائلى فى مقاومة أعداء النهار تنجح إلى حدٍّ ما ، فإن كل وسائلى التى جربتها لمحاربة كائنات الليل باءت بالفشل) .

هنا ، شخص قوى فى الحق ، شجاع فى المواجهة ، صامد لا يتراجع . هذا فى النهار ، أمّا فى الليل ، فتركبه الكوابيس ، وتطارده الأشباح ، فلا يستطيع النوم . الخطير فى الموضوع ، أنه أمر يتكرر كل ليلة !

وحين حكى ما يحدث له ، بادر الأصدقاء إلى تقديم اقتراحات وحلول ؛ لمساعدته فى التغلب على كائنات الليل التى تهاجمه كل ليلة ، وجرّب فعلا كل ما أشاروا به ، لكن كل محاولاته باءت بالفشل . عندئذ تنبه من حوله إلى أن ما يفعله نهارا ربما كان هو السبب ، فبادروا إلى نصحه (يا رجل هكذا

تسير الأمور فى كل مؤسسات الدولة . هل تريد أن تصلح الكون) ، وقالوا له أيضا «ساير الأوضاع ترتاح ! » .

ولم يقبل نصحهم ؛ لأن ذلك كان طبعه ، ولن يستطيع أن يغيّر نفسه . وعندما استمر الوضع كما هو اضطر أن يأخذ أسبوعا إجازة ، تفرّغ فيه للتفكير وتمحيص مشكلته ، حتى انتهى إلى قناعة بأنه (رجل غير عادى . رجل مشبوه « بنظرهم ، وما هذه الكائنات سوى أشباحهم النهارية تتسلط علىّ حتى تولعت بى حقيقة ، وعلى أن أبادلها الولع) !

ومنذ أن سلّم بهذا الظن ، توقف الذى « يحدث كل ليلة » . وهذا أحد مستويات تفسير هذه القصة ، أو الوجه الأول لها ؛ لأن هناك مستوى آخر للتفسير كان فيه بطل هذه القصة رجل مدافع عن « القيم » ، يعيش فى « واقع » معين ، « يرفض » ما يتفشى فيه من خلل ، ويبادر الى النضال و « المواجهة » بشكل « مباشر » . إنه نموذج « لم يكتمل » لكاتب أو هو الوجه « العملى » له . يتشابهان فى أن كليهما حامل للقيم النبيلة ، رافض لما يستشرى فى الواقع من فساد ، مبادر إلى التصدى ، تلعب « القراءة » دورا أساسيا فى تكوين كل منهما ، وإن اختلفا فى أن ذلك الشخص يتصدى بشكل « مباشر » لأوجه الخلل

نهارا ، بينما يواجه الكاتب صاحب التكوين « النظرى » بشكل « غير مباشر » نفس أوجه الفساد بالكتابة . وفى الوقت الذى ظلت فيه أصداء ما يحدث نهارا تطارد ذلك الرجل ليلا ، تبقى تلك الكوابيس إرهاصات حمل ، تمعن فى الدمدمة داخل الكاتب فى « الخفاء » ، حتى تمتزج مع رؤاه الداخلية وتتحول إلى جنين كامل ، يطالب بحقه فى الوجود ، فيكون مخاض العمل الأدبى ، بعد طول معاناة وعذاب !

أما القصة الثانية ؛ فهى قصة « زهرة تدخل الحى » من مجموعة « فتحية تختار موتها » (1987) ، فهى نتاج خصب أيضا للتفاعل بين محورين أو تيارين ، هما : الكويت القديمة وقضية من أخطر قضايا واقعنا العربى الحديث ، وانظر إلى « مخيلة » الكاتبة وهى تتوهج وتبدع ، فإذا القضية حاضرة ترتدى ثوبا شفيفا من الكويت القديمة !

الطاسة

سلمت أمى لجدتى الطاسة المعدنية :

- تفضلى هذه طاسة الحناء . . . عجنته البارحة .

وسألت جدتى :

- والسدر [١] ؟؟

وردت أمى باقتضاب وهى تتوجه إلى زاوية الغرفة :

- سأحنى البنات اليوم .

انحنت على صندوقها « المبيت [٢] » وفتحته . . ففاحت منه رائحه بخور مكتوم ، وروائح « دهن العود والورد » التى تستعملها أيام الأعياد . . . وتذكر بليالى الأعراس .

بيد حانية رفعت بعض الأشياء الراقدة فى الصندوق . . وسحبت الطاسة الصغيرة . . ثم عادت وسوّت وجه المحتويات بحنان زائد . . . بينما تنهيدة عميقة مليئة بالشوق تصدر عنها وتعلن عن شىء مخنوق فى داخلها .

---

(١) السدر : نبات مثل الحنّاء ويستخدم بدل الصابون .
(٢) صندوق مبّيت : نوع من الصناديق الخشبية الضخمة يستخدم لملابس المرأة .

وحين لمحت جدتى الطاسة الصغيرة زفرت :

- أف لهذا الوسواس الخنَّاس .. أنا لا أدرى لماذا تحملين « طاسة الذهب » معك كلما خرجت !

وترد أمى :

- هى كل ما نملك فى هذا العمر ... إنها مهرى ...

وتلين لهجة جدتى :

- يا ابنتى .. كلنا نملك مثل مهرك .. فلماذا لا نحمله أينما ذهبنا ؟؟

وتقذف أمى جوابها المختصر :

- الحرص واجب يا أمى ..

فتؤكد لها جدتى :

- لو تركت باب بيتك مفتوحًا ... لما امتدت يد لشىء فيه .

وتصمت برهة بانتظار كلمة من أمى .. وحين لم تسمعها تلك أكلمت :

- الدنيا أمان ... فى السوق يتركون مالهم ... وحليّهم .. ويذهبون للصلاة ....

وأنت ! خائفة على طاستك !

عدلت أمى من وضع عباءتها الخفيفة فوق رأسها وهى تقول

- لو ضاعت فسيلومنى أبو البنات حين يعود .

لم يعجب جدتى الرد . . قلبت سحنتها وسخرت من أمى :

- الجنون . . . فنون . . .

دست أمى الطاسة الصغيرة تحت ذراعها اليسرى . . وفتحت الباب .

* * *

لاح وجه البحر الأزرق لامعًا . . . ضاحكًا . . تدفع أمواجه زبدًا أبيض تلتمع عليه أشعة الشمس فيبدو كخطوط من الفضة المصقولة . . . وهب نسيمه الرطب ذو الرائحة التى لا تخطئ أصلها . . . يدخل إلى الرئتين لطيفًا فيبعث فى الأوصال برودة تلطف الجسد وتخفف من حرارته . وانحدرنا عبر الشارع الضيق نحو « اليال [1] » الذى بدا صافيًا . . . لامعة رماله . . . مرتاحة حجارته و « زبابيطه » التى تستحم بالماء ثم تجف .

كان مرورنا فى الشارع الضيق . . . عبر البيوت الطينية ذات

---

(١) اليال : ساحل البحر .

الأبواب الخشبية المواربة فى الغالب . . . ومن أحد البيوت يتسرب حوار رجل وامرأة ! وفى آخر يعلو خوار بقرة . . وبعض أصوات الديوك . . . وتفوح من كل البيوت روائح طهو اللحم . . . أو السمك ممتزجة برائحة الجو الرطب والتراب المبلل بنداوة تنبت أيام الصيف .

مررنا بيت « أبو صالح » مدت أمى ذراعها . . وطرقت بابه . . فالتفتت إليها جدتى :

- لماذا تطرقين أبواب الناس ؟؟

بلا اهتمام بغضب جدتى . . . قالت أمى :

- اتفقت مع أم صالح أن أطرق بابها لتلحق بنا . لديها بعض الثياب للغسل .

اقتنعت جدتى . . . وواصلنا .

استمر انحدارنا . . . البحر حلم أزرق يمتد . . أمى ونحن خلفها كالبطات البيض . . . تتقدمنا جدتى حاملة فوق رأسها « بقشة » الثياب ، وبعض الحاجيات اللازمة لحمّام البحر ، وتحت ذراعها اليسرى تدفن طاسة الحناء .

كانت جدتى قصيرة القامة . . . ممتلئة . . لها وجه مربع عريض ينتهى من الجانبين بزاويتين . . . قائمتين . . . يلتقى

ضلعاهما فى استدارة الذقن المائل دائما للاحمرار . . يزداد احتقانا حين تثور ! أو تضحك ! أو تعطس .

كانت جدة طيبة . . . حنونا . . . تفرحنا زياراتها القليلة التى تحمل هداياها من الرمان . . . « والكنار[1] » وحلاوة الديك . كما كانت تحمل الأمان معها ؛ فأمى التى تتورم رءوسنا الصغيرة من ضرباتها تمتنع عن فعل ذلك فى وجود جدتى ؛ فقد لقنتها ذات يوم درسًا حين دخلت ورأتها ترضّ رأس أختى بالحائط فتدميه . سحبت جدتى عصا أبى الغليظة المعلقة على الحائط نفسه وانهالت بها على أمى . . . وهى ترغى . . . وتزبد :

- غياب زوجك يجعلك تقسين على الصغيرات . . . فذوقى ما يذقن .

يومها أعلنت أمى التوبة . . . لكنها توبة مؤقتة . . . ثم أصبحت جزئية . . بحضور جدتى فقط . . . وكانت تتوعدنا قبل زيارتها لنا :

- إياكن أن تقلن لجدتكن إننى ضربتكن . . وإلاّ فسوف أذبحكن حين تخرج .

وكنا لا نفعل . . . فجدتى تحمينا مرة ، ولا تفعل فى

(١) الكنار : نوع من النبات الصغير .

عشرات المرات التى لا تزورنا فيها ... لكن عتابها لأمى لا ينقطع فى كل زيارة :

- ما بالك هكذا .. عصبية على الصغيرات ؟؟

وتبكى أمى :

- شقاء فى الليل ، وفى النهار .

- أنا أكره بيتك من هذه الشكوى المتواصلة ، كأن أحدًا غيرك لا يفارقه صاحب بيته .

ومسحت أمى دمعهتا :

- تمر الأيام علىّ طويلة يا أمى .

- وعليهن ؟؟

لم ترد أمى على السؤال ، فاعتدلت جدتى فى جلستها ، تربّعت ... فبدت كمربع نبتت له دائرة فى ضلعه الأعلى :

- أنت هنا .. فى بيتك ... ومع بناتك ... ورغم كل المصاعب أنت فى أمان .. أمّا هن ! ...

وتنهدت ...

- فهن بين السماء والبحر .. فضاء كبير قد يبتلعهن فى أية لحظة .

ماج اضطراب فى وجه أمى وهمست :

- لو حصل له مكروه . . .

وقاطعتها جدتى وهى « تتفل » كمن تطرد شرًا :

- تعوّذى من الشيطان . . .

وتعوذت أمى بصوت ينز حزنا . . . ويحمل مخاوف :

- الحياة صعبة . . . ترينني أخاف على طاسة الذهب . . .
لا قدر الله . . . لو فقدناها . . . لم نجد ما نعيش منه . . .

وعلا نشجيها . . . اقتربت منها جدتى وهى تقول :

- حياة بحر . . . غوص . . . وتعب .

قالتها . . وسحبت تنهيدة عميقة من صدرها الذى يئز دائمًا بالربو . . . ثم ربتت على ظهر أمى بحنان وهمست :

- ادعى الله أن يعودوا سالمين .

* * *

وأحببنا حنان جدتى . فهو حنان ينبع من كفها التى تحمل الحلوى ، وحنان من صوتها حين تحكى « حزاويها » الطويلة التى تنعش خيالنا . . وتبهج قلوبنا . . وتقصر على أمى ليالى الفراق الصعبة .

وأحببنا كذلك حمام البحر أيام الجمع . . حيث ترافقنا فى رحلة الطريق الناعمة . . وفى البحر . . . تداعبنا . . تغطسنا فى

الماء . . . ثم تلطخ رءوسنا بالسدر الأخضر ، تفرك به شعورنا . . . فترغى رغوة يتطاير زبدها فى الهواء راقصا على نغمات صوتها وهى تغنى أغنيات البحر وتحكى عن جدى الذى كان يغيب عنها شهورًا طويلة . . لا تسمع عنه خبرًا . . . وتظل بانتظار موكب البحارة بعد سفر عسير . . غانمًا . . أو فاقدًا لأحد غاصته . . . أو رجالاته .

كانت الذكريات تلون وجهها العريض بالفرح ، والتذكارات غالية . . . والجدّ نامت عيناه منذ سنوات طويلة . . . وأبى اليوم يرحل ، وأمى تبكى وتضيق ذرعا بحياتها ، وتخاف على طاسة الذهب التى هى رأس مالها لو تعكر صفو حياتها . . . ولهذا تقسو علينا كلما عصف الخوف بقلبها . . . أو وسوس شيطان بصدرها فتنتظر زيارات الجدة ، وأيام الجمع . . بالشوق . . . وبالهفة . . . ويفرح الصائم بانتظار لحظة الإفطار . . حيث الحلم . . البحر الأزرق .

* * *

هو ذا البحر يعانق العين . . هو ذا الأزرق الذى نستفيق على موسيقاه الوالهة . . . ونراقب من الأسطح سفنه . . . وأشرعتها المبحرة مع الرياح . . . ونشم عبر هوائه زفر الهامور والزبيدى ،

ورائحة جدى الذى رحل . . . وأبى الذى حمل الزوادة . . .
وودعنا . . . ليعود .

* * *

ويرتاح الجسد على الشاطئ . . . ترتاح طاسة الحناء التى تلطخ أمى بها رءوسنا . . . فنبدو كالعجول الصغيرة الخارجة للتو من بطون أمهاتها ملوثة بالدماء . . . وننتظر على الرمل الدافئ . . حتى تتشرب شعورنا اللون الأرجوانى . . . نجمع الأصداف . . والأعشاب المنتفخة ، نقفعها بأسناننا ونبصقها لترتدَّ إلى أمها البحر خائبة خاوية . . بينما أمى وبعض النسوة يغسلن الملابس والكنابل الصوفية والحصر . . . وزبد البحر الأبيض يتجمع فقاعات تصطدم بأيدى النسوة التى تحرك الماء فترتد كارتداد الشفق إلى كبد السماء .

* * *

بدأت أمى بأختى الكبرى . . . وحملت أختى الثانية طاسة الذهب . . وحين رصفت أمى شعرها بالحناء نحّتها جانبا . . . محرضة إياها ألا تغطس فى الماء حتى يجف الحناء تمامًا . .

ثم سلمتُ الطاسة الغالية لتحنى أمى شعر أختى الوسطى . . وبين لحظة وأخرى . . . كانت تلتفت إلىّ منبهة :

- انتبهى . . . شدى على الطاسة . . إياك أن تفلت منك . . .

وبانتظار أن ينتهى دورى . . . عصرت الطاسة إلى صدرى حتى أحسست بها تلتحم به . . وخشيت إن سحبتها يد أمى أن تسحب عظامى معها . . . وتنهدت بفرح حين انتهت مهمتى وسحبت أمى الطاسة منى .

رقدت عليها كما ترقد دجاجتنا على بيضها ، وأخذت تحنى شعرى . . . مطمئنة . . تغنى بصوت يبتلع البحر صداه . . وكان يصلنى متقطعًا . . يشد موج البحر نغمة . . وتشد أذنى نغمة . ونغمات تنطلق نحو السماء ، ترتفع مع الهواء . . . ولعل أمى يحملها الشوق إلى أبى الذى يستمع لأغنيات البحر . . . وصت النهام .

وانتهى دورى . . .

وفكت أمى جدائلها السوداء . . شعرها الليلى ينهال على كتفيها وصدرها وكأنه مل أسره . والتفتت إلى جدتى :

- هل تمسكين بطاسة الذهب حتى أحنى شعرى ؟

لكن جدتى هزت ذراعًا دسمًا فى وجه أمى :

- لا . . لا تحملينى مهمة شاقة كهذه . . . ظلى راقدة عليها . . . فقد تبيض لك ذهبًا أكثر .

* * *

موجة . . . موجة . . . والبحر يرقص . . . ونحن نتداعب ونتراشق بالماء . . . وشعر أمى الطويل يتحنى بكفها خصلة . . . خصلة . . . والبحر غدّار . . مخادع . . . وأمى سعيدة بشعرها . . والبيض من تحتها دافئ والموج يصفع الرمل . . . والرمل يصرخ . . . وتنطلق صرخته . . لتحرك الطاسة المعدنية . . فتخرج من بين فخذيها كخروج الطفل من مخبئه . . وتصرخ أمى :

- الطاسة الطاسة . . .

وتنتبه العجول الصغيرة . . وتنتفض جدتى . . . وأمى واقفة ينسدل نصف شعرها المحنى على كتفيها . . بينما يتطاير القسم الآخر فى الهواء . . . وتصرخ بصوت تتحدى فيه موج البحر :

- الطاسة ! أمسكوا الطاسة !

هرعنا مذعورات من عالم الحلم . . . والفرح . . صيادين بلا عدة . . . نحاول أن نصطاد السمكة الهاربة . . . التىَ تحمل فى بطنها مهر أمى . . ورأس مالها . . . الماء يرتفع ! يرتفع وجدتى تسحبنا وتصرخ :

- ارجعن ياملعونات : ستغرقن !

وحلم أمى !!

تصرخ أختى الكبيرة :

- الطاسة يا جدتى . . . .

فتشد جدتى شعرها المحنى .

- الطاسة بالشيطان . . . هل تغرقين !!

هو ذا حنان الجدة وخوفها على البطات . . . بينما أمى مفجوعة تصرخ :

- الطاسة . . . . الطاسة !

والطاسة تبتعد فوق الموج . . خيّال يهتز فوق صهوة حصان . . . وأمى . . تصفق وجه الماء . . . وتندفع لتمسك بها ، جدتى تتبعها متثاقلة ، تسحب شحما تشق به الموج الثائر . . . ولكن الطاسة أبحرت . . . وأبحرت . . . مودعة صراخ أمى الذى صار نواحًا . . .

عادت . . . تضرب صدرها . . . تولول . . . بينما جدتى حزينة الوجه . . تعصر « ملفعها [١] » الشاش الذى تبلل بالماء وتردد :

- لا حول ولا قوة إلا بالله . . لا حول ولا قوة إلا بالله . . .

---

(١) الملفع : غطاء رأس المرأة .

ويبقى الصوت حيًا

تقول الحكاية : إن ذلك الصوت الحزين الباكى كان ينساب عبر نسيم الليل فى مكان ما . ليطرق الآذان . . ينسكب فيها انسكاب الماء الحارق على الجسد . . يأتى موجعًا . . مترعًا بالألم . . فيه مزيج من الشكوى . . والابتهال . وَيُنْذِرُ بحدَّةٍ تتفجّر يومًا فتصبح جنونًا يشق بكارة الحى الغافى دائمًا على حكايات صغيرة .

هذا الصوت موّال بدأ يُسْمَع فى الليل ، يفوح صداه بروائح الألم . وفى النهار رغم الضوضاء والصخب ، يُحسُّهُ كل من يتحرك وكأنه داخل أذنه . . يشقها . ينتزعه من أشغاله اليوميّة ، ما بين اللحظة والأخرى ، كأنه يذكره بأن الصوت ما يزال .

أصبح هذا الموّال يقلق الصمت . . ويفجّر التساؤلات وهو حزين شاك لا يفتأ يردّد :

« قلبى على طُويرِ خَضَرْ
شالوه من إيدى
ما شافته العين لا

وما رضّعه دويدى [1]
عينى عماها ملحها
والنار على خديدى
أصرخ وجمر فى الحشا
وينه ثرى وليدى » .

* * *

يوم الجمعة ينفض شمل المصلين . يخرجون من المسجد كل يحمل مسبحته ، تسبقهم آيات الحمد والشكر ، يتوزعون بين الدكاكين القريبة ثم يتفرقون متوجهين كل إلى بيته . يمرون عبر الأزقة الطينية حيث تبدو النساء الكادحات عائدات من « ساحة الصفاة [2] » بعد نهار شاق ، واحدة تحمل قفص الدجاج على رأسها . وتدب فى سيرها ، وشجار الدجاجات متواصل فى القفص ، وبعض الريش يتطاير حتى يلتصق « ببوشيتها [3] » الكالحة . وأخرى تحمل سلة مهترئة فارغة إلا

(١) دويدى : تصغير لكلمة « ديد » وتعنى ثدى .
(٢) ساحة الصفاة : ساحة رئيسية فى مدينة الكويت .
(٣) بوشيّة : غطاء الوجه للنساء ولونه أسود خفيف .

من بعض قشور بيض تكسر وتلوّن بلون الصفار الذى تجمّد عليه . وأم خضر - يعرفها أهل الحى - تدسّ بقشتها المليئة بحاجيات النسوة ، وغالبًا ما يكون حجم البقشة فى طريق العودة أصغر مما كان عليه حين خرجت فى الصباح . وبائعة الباجلاء تهف على وجهها وقد اختارت ظلا تحت الجدار . ولم تكن الطريق تخلو من همهمات . . . وسلامات . . . وأحاديث عابرة بين النسوة . وقد توقف إحداهن أم خضر لتفك بقشتها وسط الشارع لتتفرّج على ما لديها من حاجات .

ويتراكض الأطفال بين النسوة والرجال . يتطاير غبار الطريق تحت أقدامهم . ويشوطون الحجارة التى قد تنفلت وتسقط فى قدر الباجلاء ، فتثور بائعته وتسب ولا من يسمع .

والبُنَيات الصغيرات على رءوسهن تتربع « مطابق [1] » اللبن وَهُنّ قادمات من بيت أم على . أو صُرَر الملابس الملونة لقادمات من بيت أم عُبيدى الخياطة ، وقد يتلاسَنَّ أحيانًا مع بعض الصبية المهرجين .

* * *

---

(١) مطابق : جمع « مُطْبَقْ » وهو وعاء خاص لوضع اللبن .

تصب هذه الأفواج فِي الشارع الطويل ، ومنه تتوزع عبر الطرقات الدافئة الضيقة العابقة بروائح الطعام .. والكاز .. وبخار التراب .

وكل من يمر عبر تلك الطرقات كان الصوت يتهادى إليه .. وكثيرا ما شوهد الناس وهم يرفعون رءوسهم باحثين عن المصدر الذى يصل منه إلى آذانهم ونوافذ بيوتهم ، فتعلو وجوههم دهشة وحيرة ! بينما السؤال يتوالى مع توالى الليالى والأيام : مَنْ صاحبة ذلك الصوت المتفجّر ألمًا بكلمات تؤكد نواح أم فقدت طفلها ؟؟

* * *

لم يكن أحد ليعترف من الرجال حين يتحلقون فى المسجد بعد صلاة العشاء بأن لهذا الصوت وجودًا . كأن كل واحد منهم يخشى أن تُلصَقَ به تهمة إيواء هذا النواح ، لكن الفضول النَسَوى كان يوقف سير الأقدام التى كثيرًا ما تَحَارُ أين تستقر ! فمن كل فراغ يأتى الصوت ، ومن كل نافذة يخرج .. ومن كل حجر ينطبق ، حتى أن بعضهن أخذ يُشيع أن « شيطانًا ما » يفعل هذا .. وبعضهن يؤكد وجود امرأة نائحة يستمعن إلى غنائها حتى تبتل بوشيّاتهن بقطرات الدمع .

تقول أم خضر وهى تفك بقشتها فى حوش أحد البيوت :

- كأن الصوت يأتى من بيت « فلان » .

فتضرب أم سليمان على صدرها الذى يكاد قَفصه أن يشق الثوب :

- ويه ! عنده زوجتان أراهما كل جمعة فى السوق .

وتحرك أم خضر أَناملها بشكل مروحة ثم تستغفر ربها ثلاثًا وتهمس :

- وعنده بنت عانس ! الله أعلم .

فتصفق أم سليمان كفًا بكف :

- لا حول ولا قوة إلا بالله . . ولكن يا أم خضر هذه واحدة تنعى ولدها .

تَنفُضُ أم خضر عباءتها وتهب واقفة :

- الشكوى لله . والله لا ندرى ما هى « السالفة » (القصة) .

وتخرج . . تترك السؤال مطروحًا : تُرى هل يأتى الصوت من بيت فلان حقا ؟؟ وتكاد المرأة تؤكد كلام أم خضر لتريح خاطرها . . لكن « عَبدة [١] » « أبو وزّان » تهز قناعتها غير

(١) « عبدة » خادمة مملوكة . غرّوبة اسمها .

الكاملة حين تجىء فى المساء لتوصل غرضًا ! جلست وتجشأت فانتثرت فى المكان رائحه فجل . فهفّت أم سليمان بمهفّتها وهى تزم شفتيها قرفًا :

– الله هداك يا « غرّوبة » كأنك أكلت عشر شدات من الفجل .

ابتسمت بخجل :

– والله صحيح يا أم سليمان . . . رَعَيْتُ اليوم بالفجل دون أن أدرى . . وأنا فى طريقى ظهرًا من الدكان . . جاءنى ذلك الصوت الشاكى . . تعوذت من الشيطان لأكمل طريقى ، لكن الشيطان جبّار ، وسوس لى ، من هنا الصوت ، فأمشى ، لكنه غاب حين وصلت وكأنه يأتى من الخلف ويهمس لى : من هنا . . فأتبعه . . وأحس بالجوع فآكل من الفجل . ظللت ساعة وأكثر حتى كاد يؤذن العصر ولا فائدة ، الصوت يهرب إن لحقته . . ويلحقنى إن تركته . . و . . . قاطعتها أم سليمان :

– ما الذى يجبرك ؟ غيرك فعل ما فعلت . . ولا أحد حتى الآن استطاع أن يعرف صاحبة الصوت أو مصدره .

فتفاخرت « غرّوبة » بصوت أَبَح :

– ويه . . يرحم والديك ، بدأ الناس يتهامسون . وتفجّر فضول أم سليمان بفرح :

- بماذا ؟ من تهامس ؟؟

تهربت غروبة من ذكر أى اسم :

- الناس . . أقصد بعضهم . . وحتى عمى « أبو وزّان » سمعته يهمس أن الصوت يأتى من بيت « أبو شهاب » .

ثم نفضت ثوبها : والله أعلم .

قالت أم سليمان :

- تقولين « أبو وزّان » قال هذا ؟

وانتشر رعبٌ على وجه غرّوبة :

- الله يخليك يا أم سليمان . لا تقولى أننى تفوّهت بهذا . . الله أعلم . . قلت لعمتى حين لامتنى على تأخرى ونقص الفجل الذى معى أننى كنت أدور وأبحث عن مصدر الصوت ، وأننى فعلاً لم أتعرف أو أقنع بمكان . .

- وماذا قالت ؟

- سحبت الفجل من يدى بغيظ . وعند الغداء سمعتها تحكى قصتى لـ « أبو وزّان » وهنا همس بما قلتهُ لك .

وعدتها أم سليمان بألا تنطق بما سمعت ، وحين تركت غروبة حوش الدار ،كانت أم سليمان تقف وفى خيالها خواطر ، وصور ، وتهيؤات ، ثم مشت وهى تهمس لنفسها : الشكوى لله

الشكوى لله . . سأخبر « أبو سليمان » بما قاله «أبو وزّان» .

* * *

صارت الأغنية تتردد على أفواه النسوة وهن يخبزن خبز الرقاق . . أو يغسلن الثياب ، حتى وهن يفركن القدور السوداء بالرمل . وانتقلت العدوى إلى الأطفال صبية وبنات ، فأخذن يرددنها ليل نهار رغم صراخ آبائهن فى وجوههن ووجوه أمهاتهن اللاتى يرددن الأغنية .

وأصبح الأمر اعتياديًا . . المارّون يسمعون ، يبحثون ، ثم يعجزون . والنسوة بفضولهن يخترعن كل يوم حكاية ، والرجال يستغرقون ويهربون من مناقشة الموضوع . حتى كاد الناس بعد ذلك أن يتجاهلوا الأمر . . أو ينسوه تمامًا .

ذات صباح تعكّرت السماء بالغبار الأحمر . كان « ناصر » يمسك بيد أخته « وضحة » يقطعان الطريق من البيت إلى المدرسة . يوصلها أولاً ثم يكمل طريقه إلى مدرسته ليعود بعد الانصراف ثانية ، فيجدها تنتظره حاملة دفاترها ، وباليد الأخرى عصا من الحلاوة تمصّها بتلذذ ، تعطى له نصفها ما أن يصل .

فى ذلك الصباح تأخرا فى النوم . . لذا كان يجرّها من يدها راكضًا .

صرخت :

- لماذا تركض ؟؟

- لقد تأخرنا . .

وتوسلت بصوت طفولى :

- لا تذهب من طريق « الحوطة » أريد أن أمرَّ على الدكان .

كررت وهو يجرّها :

- لقد تأخرنا . اشترى الحلوى من قرب المدرسة .

وبإصرار قالت :

- لا أريد . . لا أريد . .

صفعها صفعة خفيفة على وجهها . . وشدّها إلى الحوطة ، يقطعانها إلى الشارع الآخر .

كان ملح السماء الأحمر يزداد . . والهواء يتلاعب بأوراق الأكياس وبعض القاذورات ، والحوطة خالية تمامًا إلا من عنزة تُركت لترعى بعض الورق والفضلات . . وهما يركضان رغم الحصى والعلب الفارغة . وفجأة هوت أخته منكفئة وصرخت :

- إنك تسحبنى .

- لقد تأخرنا . هيّا . . قومى .

وانحنى ليرفعها عن الأرض ، فاصطدمت عيناه بكومة من

التراب المبللِ . . وقد تبعثر بفعل سقوط أخته عليه . رفعها . .
نحّاها جانبًا ، نظر إليها وتساءل :

- ما هذا ؟

فصرخت فيه كأنها تود الانتقام منه :

- هيا . . لقد تأخرنا .

وضع سبابته على شفتيه :

- هس . لنَر ما هذا أولاً .

فجأة عوى الكلب ، فارتجفت الصغيرة ، لكنه هدّأها . .
وجلس بقربها . . وأخذا يتأملان الكومة الرطبة . . وتساءلت
العيون الأربع . . تباعدت . . وتلاصقت . . ثم عادت تعانق
كومة التراب .

مدّ يده . . أخذ ينبش الكومة فصاحت أختَه بصوت
مرتجف :

- لا . . لا يا ناصر . . يمكن أن تكون حيّة .

هدأها :

- الحية لا تدفن نفسها هكذا .

ويده لا تزال تنبش . . وتنبش . حتى بدأت تغوص بعد
ذلك . وإذ اصطدمت بشيء ، التفت إلى أخته :

- وجدته .

شهقت :

- ما هو ؟؟

- كنز !

فرحت :

- كنز ؟ ذهب يعنى !

قال وهو يكمل رفع التراب

- ذهب . . فلوس . المهم وجدنا كنزا . وحفر . . ثم مد كلتا يديه الصغيرتين ، وانتشل صرّة من القماش الأبيض . نفض عنها التراب ووضعها بينه وبين أخته :

- هيّا . . فُكى هذه الخيوط .

وانفرجت الصّرة عن مشهد جعلهما يقفزان صارخين بصوت واحد : يُمّه . . يُمّه . .

تثلجت أطرافهما لبرهة . . والكلب الذى كان يعوى فى آخر الحوطة اقترب . . وصلّب أذنين جرباوين ولسانه يلهث ، ثم اقترب . وأخذ يشم الصّرة ويرفع رأسه نحوهما . . ثم يدور . . ويدور بينما عيناهما تتقاذفان الخوف والسؤال .

نطق أخيرًا بكلمات عوجاء :

- هذا ولد .

هزّت رأسها بإيجاب ، ولمح دمعة على خدّها تلوّنت بلون « الطوز [1] » الأحمر .

طرد الكلب بحركة من يده .. ولمّا لم يتحرك أمسك بعلبة فارغة ، قذفه بها .. ثم بعصا . لحقه حتى ابتعد قليلاً ، وعاد إلى أخته التى مدت أصابعها تتلمّس جسد الطفل الطرى . وحين دنا منها سحبت يدها خجلى . فأخذ بدوره يتفحص الطفل . يشد ساقيه ويديه .. وقال :

- هذا ولد ميّت .. ولكن !

وبكت :

- واى .. أنا خائفة .. هنا يدفنون الأموات ؟ ؟ لامس كفها الصغير ليزيل بعض هلعها :

- لا .. يدفنونهم فى المقبرة .

وأشارت بإصبعها :

- وهذا ؟؟

- لا أدرى .

---

(١) الطوز : الغبار الأحمر الذى يأتى فى الصيف .

ثم انكفأ يلفّ الطفل بقماشه ، وغيره من الصبيّة والبنات بدأوا يهرعون عبر باب الحوطة .يقتربون . . يقتربون . وقبل أن يكمل وضع الطفل فى حفرته كانوا يتحلقون حوله متسائلين . . لكنه صرخ فيهم :

- ابتعدوا . . لا عليكم فى هذا الأمر .

وثار صراخ الأولاد . . ثم امتدت يد أحدهم لتشد « ناصر » من فوق التراب . . وسَحب الصرة البيضاء وفتحها أمام أعين الجماعة التى ما كادت ترى المشهد حتى تطايرت رعبًا . وتراكضوا إلى بيوتهم ليعلنوا الخبر . فَشدّ على يد أخته . . وألوى راكضًا هو الآخر ناسيًا المدرسة التى خرج إليها مسرعًا هذا الصباح .

* * *

سرى الخبر سريان النار فى الهشيم . وخلال وقت قليل كانت الحوطة تعج بعشرات الرجال والنسوة وبعض الصبية الحفاة فى دشاديش النوم المقلّمة القصيرة يفركون أعينهم التى لم تشبع من النوم .

أخذ بعض الرجال يهش الجموع ، لكن الجموع تبتعد من جهة لتزدحم من جهة أخرى . وبدأ شجَار بعض الصبية ، وكأن ثأرًا

قديمًا قد استفلق فجأة بينهم . بينما تقرص أفخاذهم وزنودهم أصابع الأمهات اللاتى يردن أن يسمعن كل كلمة ينطق بها الرجال المتحلقون حول جثة الطفل التى أصبحت مشاعًا لكل الأعين .

قال أحدهم :

- نواريها التراب .

اعترض آخر :

- هذه ليست مقبرة .

تنهد ثالث وتعوّذ :

- من الذى فعل هذه الفعلة ؟

صرخ صوت :

- أقسم أنه « ابن حرام » أرادوا التخلص منه !

هدّأه رجل :

- سَمِّ بالرحمن . لا تُقْسِمْ قبل أن تعرف الحقيقة . لكنه احتدّ أكثر :

- حقيقة .. أية حقيقة ؟

وأشار بيده إلى الجثة وأكمل :

- الحقيقة أمامك .. ولست أعمى .. جاهل ميّت مدفون فى حوطة .

عاد يهدئه :

- صحيح .. صحيح .. لكن يُمكن !!

- لا يمكن .. ولا يصير .. هذه فضيحة تتوارى وتنكشف .

كان الغبار الأحمر قد تزايد ، والهواء يرتفع ويهبط فيحمل معه الورق .. وبقايا القمامات . حتى عباءات النسوة بدأت تتطاير ، ولمح أحدهم ساق امرأة فاقترب منهما :

- أنت .. خذى ولدك وارجعى إلى بيتك ..

ولم ينته حتى كان لسانها ينفلت بالصراخ :

- ألم تجد غيرى ؟ كل هؤلاء - وأشارت بشكل نصف دائرة - كلهن ولا تجد غيرى .. أم أننى واحدة من أهل بيتك لتتحكم بى ؟

حمل الرجل نفسه وابتعد يهز رأسه .

أخيرًا جاء صوت أبو يوسف .. الرجل التقى :

- يا جماعة الخير ! صلوا على النبى . نحمل الطفل إلى « الدختر [1] » أو إلى « الأمن العام » ونسلّمه هناك والحكومة تتصرف .

---

(١) الدختر : الطبيب .

وتدخل أحدهم :

- لماذا لا ندفنه يا « أبو يوسف » وأحدنا يخبر الحكومة . حرام أن نحمل جثة الطفل بهذا الشكل . وافقت عدة أصوات :

- هذا أفضل .. هذا رأى معقول .

وتلفت « أبو يوسف » يستعرض الجموع .. والصغار وأشار :

- وهؤلاء الناس ! هل سيتركون الأمر بسلام ؟

- صدقت يا « أبو يوسف » صدقت .. صدقت ..

همهمات انطلقت ، وكل وجه يستعرض الوجوه الأخرى ، وأبو يوسف يقترح :

- هل يتكفّل أحدكم بالذهاب إلى الحكومة .. وآخر بحراسة الجثة ؟ أما أنتم ...

وشق طريقه بين الناس :

- أرجوكم .. كل إلى بيته .

وحين لمح وجوه بعض الأولاد الكبار صرخ فيهم :

- وأنتم .. لماذا لم تذهبوا إلى مدارسكم ؟

تراكض بعضهم بينما ردد باقون :

- الدنيا « طوز » عمى أبو يوسف .

هشّهم :

- زين . . زين . . يا الله . . كل واحد على بيته .

تفرق الجمع . . بقى اثنان قرب الجثة التى واروها التراب ، وانسحب ثلاثة فى طريقهم إلى التبليغ .

لم تتفرق النسوة . . سرنَ جماعات . . وأحاديثهن تتطاير مع تطاير الغبار والقاذورات . . وكل واحدة تتساءل :

- هل يكون الطفل ابن فلانة . . أو فلانة . . أو فلانة . . .

ففى الحى المجاور نساء معروفات ! لِمَ لا تكون إحداهن قد أرادت الخلاص من الطفل ؟ وتساءلت أخرى :

- ولكن ! لماذا فى الحوطة . . لماذا لم تدفنه فى حوش بيتها ؟

- شىء عجيب . هذه حكاية لم تخطر على البال ! ولكنى أؤكد أنه ابن حرام كما قالوا ، وإلا لما تخلصوا منه .

سخرت واحدة :

- كأنك ترين ابن حرام لأول مرة ! كم من طفل وجدوه مع « مشيمته » فى « البلدية » بين الأوساخ !

- صحيح . . لكن هذا ميت . . وربما مخنوق !

- الخوف . . الخوف يا أم أحمد . . أو . .

التفتت إحداهن إليها :

- أو ماذا ؟

- الله أعلم . . ربما يكون ابن عائلة !!

وضعت النسوة أكفهن مفروشات فوق رءوسهن وردّدن :

- الله أكبر . . الله أكبر .

وشهقت واحدة بصوت عال :

- يا جماعة . . تذكرت . . أينكُنّ عن الصوت ؟؟

- أى صوت ؟ ماذا تقولين ؟

انطلقت التساؤلات من كل الألسنة بفضول ، وكأنها تهزأ من جهلهن .

قالت المرأة :

- أئُ صوت ؟؟ كأنكن نسيتن !

وأخذت تردد :

« قلبى عـــلى طوير خضر . .
شالوه من إيدى . . . إلخ »

وقاطعتها إحداهن محتدة :

- بَسْ . . هذا غباء . . الصوت الذى نسمعه صار له شهور . .

اعترضتها أخرى :

- ما المانع أن تكون أم الطفل ؟

عادت الأولى تدافع عن وجهة نظرها بذكاء تفخر به :

- لقد رأيتن الطفل : هذا مدفون جديد . . وذلك الصوت قديم . . فهل تبقى جثة الطفل سليمة هكذا ؟؟

ساد صمت . . كأن كل واحدة تلعن غباءها . . وتهامسن :

- صدقت . . صدقت .

عادت الأولى وكأنها تريد أن تعيد ثقتهن بأنفسهن :

- كلامكن عن الصوت صحيح . . والله أعلم . . ربما أخذوا من صاحبته الطفل عنوة . . ودفنوه لكنه على أية حال ليس هذا الطفل . . هذا له أم أخرى أرادت التخلص منه . . ومن يدرى ربما أهلها . . . ثم ضحكت :

- ومن يدرى أيضًا . . ربما غدًا نسمع أغنية أخرى . قالت إحداهن وبوشيتها تلتصق بفمها :

- إن كانت له أم مغدورة . . فما أن تسمع حتى تهرع إلى المكان . . أما إن . . . وأكملت أخرى :

- إن كانت هى وأهلها الذين تخلصوا منه فلن تتحرك .

- غدًا نسمع الأخبار .

قالت واحدة بحسرة :

– من أين يا حسرة ! الحكومة ستأخذه وتدفنه وتضيع قصته كما ضاعت قصص أخرى قبله .

* * *

ولم يكن مقدرًا أن تنام هذه الحكاية كما نامت قبلها حكايات . . فحين كان المارّة يسمعون بكاء طفل فى أماكن البلدية المنتشرة فى الأحياء . أو عند أبواب المساجد . . أو فى السوق يجدون طفلا فى « زبيل [1] » تثور الأقاويل . . تلمع الشائعات ثم تصدأ بعد ذلك وينام عليها الغبار والنسيان .

* * *

استيقظت الآذان وصدى الصوت النائح يشق المسافات ، يعبر إلى الوجدان ، يهزّ النوم الراقد فى الأجفان . . ومنذ كبر المؤذن داعيًا لصلاة الفجر كانت الأغنية الحزينة تنطلق كصلاة تشق رقعة السماء التى هدأ نزيفها الأحمر . لم يعد الصوت وهمًا أجرد . . ولم تعد الأغنية مجرد صدى . . إنها حقيقة تؤكد

---

(١) زبيل : قفّة .

نفسها اليوم ، وتمزّق شرايين الصّباح المتنفس بعد ليلة طال فيها السهر . . وكثرت الأقاويل . . والتخمينات .

نفض الناس عنهم دَبَقَ الأجساد ، والرجال فى طريقهم إلى المسجد تغيرت خطوتهم . . ساروا باتجاه الصوت الذى تأكدوا أنه حىَ يصرخ من حولهم . . ويقترب كلما اقتربوا . . وسحبت النسوة عباءاتهن وخرجن ، يلتقى فوج بآخر ، يلحق بهن الأطفال والصبية . . والرضّع على الأذرع لم يغتسلوا من بولهم بعد . . وربما لم يرضعوا . الصباح يحمل الرّنة الحزينة . . لا يسمع سواها ، وسوى صوت الأقدام . . يحذف أحدها علبة مبعوجة فتئق ثم تخرس . . وقدم تحذف عصا فتطير مستغيثة . . وخبطت قدم فى « براز » أحد الصبيّة . . فسحق نعل حذائه على التراب الخشن ، وفاحت رائحته القديمة ، فابتعد الناس مهرولين كمن تلحقهم عصا إبليس . . والصوت يقترب . . ويقترب كلما دنوا من الحوطة .

وعند بابها توقف الجمع . . كان الصوت راقدًا فيها . عاريًا هذه المرة . . يؤكد حقيقته بنواح مذبوح .

اندفع الفوج . . وعلى التراب الرطب . . كان جسدها مُلقى . . عباءتها تنسدل عن نصفها العلوى فتبدو جديلتان

فاحمتان تمتزجان بالتراب . . وصوتها يمتزج بدمعه ، جبّارًا كأنه يعنف هذا العالم الراقد تحت جذور الخوف وأتربة النهارات المرّة المتعاقبة .

لم تجرؤ امرأة من قبل أن تعلن عن نفسها ، واليوم ! ها هى قد انكبت على القبر الفارغ ! تنبشه بأظافرها . . مزّقت رمله . . وطحنت حصاه ، وحين لم تجده فاح عواؤها البائس . .

ورددت الأغنية التى ربما كانت لأم مفجوعة قبلها . . أو لأمهات توأد قلوبهن فى الليل تحت الأرصفة الشرهة للحم الخطايا الدائمة .

انكفأ رجلان . . رفع أحدهما العباءة ليستر وجهها . . وأمسك الآخر ذراعيها ليقتلعها من على التراب . لكنها التصقت بالأرض التصاقًا يتحدّى الأذرع القوية الممتدة . . غرست كفيها فى القبر المفتوح وصرخت :

- دعونى . . أموت . لقد قتلوه .

لم يكن همّ الرجال مُسلطًا على معرفة المرأة ، فهم حتى لو شاهدوا وجهها تحت أشعة الشمس المشرقة لما عرفوها . . لكن فضول النساء كان يغلى . . كل تريد أن تلمح ولو طرفًا ، عينًا . . أو شفة أو خدًا . . لعلهن يحدسن من تكون .

لكنها لا ترفع وجهًا .. ولا تشعر بوجود من حولها ..
لا تحس بالفضول القاتل المطل من العيون ، لا ترى حولها إلا أشباحًا لأيد مزقت البارحة قلبها .. واختطفت الطفل من بين فخذين استسلما للعشق ذات ليلة .

* * *

تجذّرت المرأة فى الأرض .. تسكب عصارة الروح الجريحة .. وتنبع آهاتها كما تنبع نافورة دم من أرض داستها أقدام دخيلة نجسة .. وصوتها يعلو .. وينخفض مبللاً بالأسى .. ممزوجًا بنغمات كأنها حدّ السيف يذبح سامعيه ..

« أصرخ وجمر فى الحشا ..
هـذا ثـــــرى ولـيــدى
هـذا .. ثـــرى ولـيدى » .

وتهطل دموع الرجال الذين يحاولون انتشالها .. لكن الجسد ثقيل .. كأن آلاف الرمال والأتربة والحصى دفنت فيه .

* * *

كان النهار قد شعشع .. جدائل باهتة بلون الوجوه ..
ونواح النسوة .. يتقاطر .. كل تقف فى مكانها تغطى صفحة

الوجه ببوشية سوداء رطبة . لم تعد واحدة تبحث بين الفوج عن شبر تطل منه لتعرف وجه المرأة . كان الحزن قد تدفق إلى صدورهن . فمات فيها الفضول .. ماذا يهم أن يُعرف وجه المرأة ؟ كان الغضب يلازم أنات البكاء .. يودّ لو يصرخ فى وجوه الرجال المتحلقين ... أن يشير بالأصابع ! أن ينفلت كما تنفلت أنات المرأة ! وكما انفلتت جدائلها السوداء تتعفّر بتراب الأرض .. بملحها الذى رُشّ على جثة الطفل ... وكانت العيون تتساءل : أين ذلك الرجل الذى شاركها الفعل وزرع البذرة ؟؟ لماذا لا يأتى كما جاءت !! ولا يبكى .. كما تبكى .. ويتمزق .. كما تتمزق جوارحها ؟؟ لكن الغضب لا يخرج .. والصرخة حبيسة تخشى الانفلات لترتاح من ثقل سنوات الصمت .

حاولت إحداهن أن تشق طريقها .. وتقترب حاملة طفلها الرضيع .. وذت لو تمدّ يدها به إليها .. وتستحلفها بالله :

- خذى .. هذا هو ابنك .. لم يمت .

لكن الخوف المنسوج كخيوط العنكبوت أوقف المحاولة .. وكذلك الصرخة الداوية التى ارتعد لها الفوج كله .. واستفاقت منه عيون الرضّع النائمة . صرخة المراة مزّقت

وجه الفجر المتفتّح .. ثم ارتدت سكينٌ شقت الصدر الذى تمزّق ثوبه .. وانكفأت بلا حراك .

* * *

حين تفرقت الجموع تسحب خطاها بحزن تحمل عثار طريقها التى ما استطاعت جدائل الشمس أن تنيرها .. كانت تتهادى إلى الأسماع تلك الأغنية ! حزينة .. لا تزال .. لكنها شديدة الوقع .. تخترق الآذان وكأنها تطرقها بآلاف المطارق .. توقظ فيها شيئًا .. تذكر أن الصوت حىّ .. وأنه .. سيبقى .

وتقول الحكاية إنهم حين جاءوا ليحملوا جثة المرأة .. وجدوا حليب ثدييها المكتنزين يصُب فى القبر .. ويروى التراب .

دفنوها .. دفنوا سرًّا عاش بصدرها .. ومات معها . لا أحد يعرف الحكاية .. وحدها فقط كانت تعرفها . ولو بقيت عيناها مشرقتين على هذا الأفق الجاحد لروت حكايتها التى تقول : ....

....

الموت فى لحظَة البدء

الأضواء الضعيفة المنبعثة من نوافذ البيوت الفقيرة ترسم مربعات ومستطيلات على الشارع الترابى الضيق . رائحة الفحم المنبعثة من بين المساكن المجدورة تختلط برائحة عرق السكان الذين هدأت حركتهم تقريبًا إلا من بعض همهمات خافتة كانت تصدر عن بعض النوافذ شبه المفتوحة وكأنها تريد للصدور أن تستنشق هواءً منعشًا يزيل رائحة الفحم المحروق بالكاز .

لم تكن ثمة حركة واضحة فى الشارع .. سوى أصوات القطط التى تتداعب فوق الأسطح أو تتشاجر ويلاحق بعضها بعضًا عبر الأزقة الضيقة التى تتلاقى فى النهاية عند الساحة الخلفية ، حيث يبسط القوم فى الصباح بضائعهم وخرفانهم ، ودواجنهم ، وينادون عليها بأصوات هى أقرب إلى الفحيح منها إلى الأصوات البشرية المألوفة .

الصمت والظلام يثيران نوعًا من الرهبة ، لكن خطواتها العجول لا تصدر أى صوت . حتى حين تعثرت بحجر كان أبناء الشارع يحتفظون به فى هذه البقعة من الأرض كدليل

لحدودهم مع الشارع المنعطف .. لم يصدر أى صوت عنها خشية أن يُسمع وقع عثرتها فى هذا الليل الصامت المتراخى ويعدها تطل النظرات الفضولية النهمة لسماع أى خبر جديد يصبح عند الفجر حكاية تتسلق الجدران وتقفز الأسطح لتدخل إلى البيوت المجاورة ثم تتعداها إلى آذان الحى كله ، لتتسرب بعد ذلك عبر القنوات المرة إلى الألسن ، تجرش بها كى لا تصدأ ....

تسير مستترة تحت الجدران ، لكنها تسمع الهمس المعتاد كل ليلة تصاحبه خشخشة المسباح :

- اللهم استر على عبادك .

وحين تقترب الخطوات بمحاذاتها تسمع تنهيدة راعشة من القلب .

لا يهم .. إنه « أبو محمد » . لن يزعجها إلا بنظرة اللوم ممزوجة بالود . يرشقها بها كل ليلة حين يراها فى اللحظة نفسها .

وحين يبتعد تسارع فى خطوها رشيقة كحمامة تخلصت للتوّ من بيضها . ورغم دبيب الخوف الذى كان يرعش أطرافها فإنها من أجل إخماد دبيب الشوق وصراعاته تهمل هذه الرعشات

وتسرع قاصدة الحبيب الذى ينتظرها كل ليلة فى غرفته التى تمتاز بباب آخر يطل على الشارع .

قبل أن ترفع يدها لتطرق الطرقة الأولى ، تكون ثمة يد تفتح الباب الجائع وتلتهم كفها وتسحبها إلى الداخل .

- حسبتك لن تجيئى الليلة .

الصوت مرتبك ونغمته جافة ، مرتجفة :

- لو أنه ينام ولا يصحو أبدًا . . .

تمسك يده متوسلة :

- حرام . . لا تقل هذا . .

يلتفت صوبها ونظرة تساؤل تقفز من عينيه :

- وما الفرق بين أن يعيش أو يموت ؟

ترتخى يدها . . وتلملم أصابعها الباردة . . وتهمس :

- لا فرق ! لكن وجوده لا يحرمك منى !

وكانا قد وصلا إلى فراشه ، فبسط جسده على الفراش مواجهًا النافذة الكبيرة ، وشبك كفيه ثم توسدها ، عيناه من خلف الزجاج المجرح ترقبان النجوم ببريقها . تتحدى بريق عينيه . المسافات بين النجوم ، تتفاوت الأعداد الملتصقة ؛ تقل فى مكان وتكثر فى مكان آخر . ليس هناك أى تناسب ،

لا فى الحجوم ولا فى المسافات و لا فى البريق .

- واحد . . . اثنان . . . ثلاثة . . . خم . . .

- لا تعد النجوم . . حرام . . غدًا تنبت التآليل فى أصابعك .

ينكفئ على بطنه . . يرفع ساقيه ويشبكهما ، ويؤرجحهما فى هواء الغرفة الدافئ بينما ضحكه المتواصل لا ينقطع :

- بسيطة . . . سأسرق بعض حبات الأرز فتموت التآليل .

ويستدير ناحيتها :

- أتدرين من أين سأسرق حبات الأرز ؟ . . . هه ؟

- قبل أن تفتح فمها يجيب :

- من بيت « أبو غنّام » . عنده كثير من أكياس الأرز المخزون . . . أليس كذلك ؟

تطأطئ رأسها ويدوى فى أذنيها صوت « أبو غنام » :

(- أترين ! إننى « شيخ العيش » . . .

- ولكن لماذا تخزنه هكذا ؟ إن السوق فقيرة منذ أشهر ، وأسعار الأرز تقصم ظهور الناس .

الضحكة المجلجلة يرجع صداها إلى حلق « أبو غنام » .

الغرفة مليئة بالأكياس ، لا فراغ يرد صدى الصوت المجلجل .

- غبية أنت : لا .. بل تتغابين . كلما قل الأرز ارتفع السعر ، وكلما ارتفع ازددت ثراءً .. وإلا من أين سآتيك بالنقود ؟

وينظر لها نظرة ذات معنى ، تغوص النظرة إلى أعماقها حتى تصل إلى كل عرق ..

النبض يتسارع فى أنحاء جسدها الممتلئ :

- هل توافقين من غير نقود ؟

ويشدها ...

يلقى بها على الأكياس الممتلئة حتى الأعناق فلا تعود قادرة على التنفس بينما يتنفس كيس الأرز) .

صوته ثانية يعد النجوم المبعثرة . خمسة وعشرون ... ستة وعشرون .. سبعة وعشرون ...

تخطف يده .. تسحب أنامله داخل فمها الجائع تضغط بأسنانها على أطراف الأنامل فيخاطبها مازحًا :

- لا تضغطى كثيرًا ستنفجر التآليل فى فمك ، وبعدها ستضطرين للذهاب إلى المداوى « أبو حسين » وستجرعين المر والصبر ...

- « آه .. يا صبر أيوب على بلواه » .

- كيف تحتملين جثة « بو حسين » ؟ لو كان عندى ما أسد به عيونك ، وفمك ، وكل ثقوبك لما تركت « بو حسين » وغيره يتكدسون كأكياس الطحين بديدانها فوق جسدك . . . آه . . . الله يفتحها علىّ . . العزوبية قاتلة .

ويجيئه صوتها معاتبًا :

- عزوبى ؟ أيها الماكر ! قبل ليلتين كان ابن « الحجى حمد » يخرج من حظيرتك هذه مسرعًا يعض دشداشته . . .

ويبتسم بشىء من التحدى :

- لا تحاولى اتهامى . كنت أمازحه فقط . . هئ . . هئ . . هل أريك كيف مازحته ؟

ويشدها . . فتزفر :

- أف ابتعد . . لا أريد أن أرى ، ولا أسمع ، ولا حتى أجرب . . .

وبنظرة تحدٍّ يصفعها :

- ولا أنا . . وأنت تعلمين هذا تمامًا .

يلقى بردّه كماء النار على وجهها ويستدير . وتبتلع الغصة داخل حلقها كطرفى موسى جائعة وتحاول أن تنسلخ عن هذه اللحظة فتنسى . لكنها تحس بشىء كالطنين الجارف يحيط بها .

ويبتلع قدرتها على الهرب إلى عالم الأحلام . فتهوى فى رئة الحزن كما تهوى جرثومة فى صدر آدمى .

أحست بيده الناعسة تبحث عن أطراف أصابعها . تعطيه الكف المشتاقة لوثبةٍ قد تدفعها من عالمها الثلجى ، إلى عالم أكثر دفئًا . . لكن يده تعصر كفها بقسوة :

- كنت ذات ليلة فى أحضان المهووس الأجرب « فهد » .

ترتجف :

- كيف عرفت ؟

يزعق بصوتٍ يكاد يشق فم الليل المغلق :

- الخنزير ابن الخنزير يتغنى بك . . يقول الشعر .

يجمع الحثالات فى ديوانيته ويعلنها بلا حياء !

يقترب منها أكثر . . . كفه تهرب مسرعة من كفها لتستقر على عنقها معانقة بضاضته !

- والله لو أقدر لخنقتك الساعة . . . كيف لا تخجلين ؟

إنه يتغنى بوجهك الباسم . . تبتسمين له أيضًا . . . ويعينيك الوالهتين . وبفمك المجنون الظامئ أبدًا . . .

يشد . . يعتصر لحم عنقها :

- هل قبلته بوحشية الملهوف ؟ أم تراك سكبت كل بلسمك

لديه فأنعشته يا فاجرة ؟

أحس بشفتها . . أرخى يده . . نظر إلى الوجه الدامع . . إنه يشبه صحراء مقفرة . . واحات حزن منتشرة بين ملامحه . . خوف غريزى من الموت . . من العالم كله . . يطفو على مساحة شفتيها يبغى الانقلاب ، لكنه مكوّم فى وجهها كجسد ميت .

تبكى . . . .

لكنه صامت . . .

تنبعج كشمعة ذابلة تنتظر لكنه يستدير إلى الناحية الأخرى . . إنه لا يفكر حتى أن يقول كلمة حلوة .

يلفها الظلام . . يصير أمواجًا كعيون عمياء تصفع ارتخاء جسدها المهمل وتجلد شوق وجهها الحزين . تنسل من قربه كانسلال الخيط من ثقب الإبرة . . لكنه يستوقفها ويصرخ فى وجهها الباكى :

- لن تكونى لى أبدًا . . أنت محرّمة على حتى تخرجى من مستنقعات الآخرين . .

ترتخى يداه بألم . . فتبتعد عنه . . وقبل أن تصفق الباب تسمعه يزعق بصوت اختلطت المسرة فيه بالغضب والنقمة :

- لعن الله الفقر .

دقائق . . . وكان الطريق المعتم يلتهمها ، أضواء النوافذ نامت تمامًا . . والهررة هاجعة لا تبدو منها سوى ألوان عيونها ، ورائحة الفحم صارت لها نكهة أخرى . . . إنها الآن نكهة الرماد الممزوج بالماء . . الجمرات أغرقت . . وخمدت .

لكن الجمر الذى فى داخلها لم يخمد بعد . إنها تحس بلسعة داخل صدرها ، تحرق إحساسها وتذكرها بلون الفحم .

* * *

دثرت الأعمى بالغطاء . . ثم نظرت إلى الوجه المتغضن . . الزمن شق خرائطه على صفحة الوجه الطيب . . دموع الشيخوخة تسيل من عينيه على الطرف الأيسر من وجهه حيث استدار . . .

تنهدت . . . وصوت داخلى يهمس :

- هذا الشقى . . الأعمى . . ليتنى مثله فلا أرى ولا أتعذب . . وآكل لقمتى بهناء كما يأكلها . . إنه لا يدرى كيف تجىء لقمته . . لو عرف لكانت يداه قد امتدتا إلى عنقى قبل يدىْ جاسم . . .

ويغريها ذكر اسمه . . تتمدد قرب والدها الكهل وتستقر فى بحيرة صفاء . . .

– آه يا جاسم . كم أهفو للسعادة معك ، أريدها سعادة تنمو كالعشب على أرض رطبة . أريدها جمرًا متوقدًا لا يطفئه ماء . . ولا نفخة هواء . . .

وتنام . . واسم جاسم كالموسيقى فى أذنيها ترقص لها كل عروقها .

* * *

الساحة الخلفية تعج بالحركة . . البضائع منتشرة . . . بعضها ارتقى إلى طاولات خشبية مهترئة الأرجل . . أو عرجاء أسندت إلى قطع من الطابوق المرصوص . وبعضها الآخر افترش الأرض قرب بائعيه .

بائع السمك يرص « زبلانه » ، ويرفع صوته متغنيًا بسمكه الطازج . . وفى الجانب الآخر تتربع بائعة الدجاج والحمام . . أمام قفصها الكبير تحاور مشتريًا لم يعجبه السعر .

وحين أصرت على الثمن استدار مبتعدًا . فبصقت على الأرض غيظًا .

الصبيان يلهون بينما تمتد أيديهم بين لحظة وأخرى فى غفلة

من البائع لتسرق شيئًا من الحلوى المرصوصة على ورق يحتضر وحين يبدأ الشجار بينهم يُثار الغبار فيصرخ بائع الحلوى وهو يكشهم كما يكش الذباب :

- يا ملاعين . ابتعدوا وإلا !!

أحد الصبية يلتقط حجرًا ويقذف به أحد رفاقه ، لكن الحجر يضل طريقه فيصدم وجه الأعمى الذى يتكوّر على دكة قرب أحد البيوت المطلة . . على الساحة . فيزعق رافعًا عصا بائسة :

- يا ملعون ! كدت تعمى عينى .

يضج الصبية بالضحك ويتحلقون حوله هازئين غير مكترثين بردع المارة من رجال ونساء لكنهم ما أن يلمحوا طرف عباءة « فطوم » حتى يفروا متفرقين .

- هلا . . هلا . . فطومه . . هلا عينى . .

- عمت عينك !

لكن الرجل لا يثور ويقترب متوددًا :

- ليش فطومه ؟ ليش عينى . . غيرى « مو أحسن منى » .

قبل أن ترد عليه لتنهاه تصطدم نظرتها بوجه « أبو محمد » . أصابعه كالعادة تعانق المسبحة يفرق حباتها ثم يجمعها ، وحين يقترب منها أكثر تسمعه يقول :

- متى ترتاحين من حياتك الضائعة هذه ؟

ويجىء صوتها حزينًا :

- كيف يا « أبو محمد » ؟ وأين ؟

ينتعش وجهه فجأة ، وتخرج كلماته من القلب :

- عندى يا فطومه . . سترتاحين .

تحتبس الدمعة فى مقلتها وتسأل باستنكار :

- أتريدنى الليلة يا « أبو محمد » ؟

ترعبه التهمة ! ينتفض فتهتز المسبحة بين أصابعه معلنة احتجاجه :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . لم تفكرين هكذا ؟

- لأنهم جميعًا يفكرون هكذا . .

تندمج نغمة خطواتها وتنتظم . يسيران مبتعدين عن زحام الساحة .

المسبحة تنتقل من يمناه إلى يسراه بحركة مرتبكة :

- أنا لست واحدًا منهم . . إننى أشتهيك . . و . .

قبل أن تدهشها كلماته يلتفت إليها مستدركًا بعجالة :

- وبالحلال . . . على سنة الله ورسوله . . كل ليلة . . وإلى الأبد . .

لا تصدق !

تنظر له بعينين تاهت منهما كل المعانى . شىء كالضباب الفضى يطوف فجأة فيغشى نظرها وتهمس :

- وهل سأرتاح حقًا ؟

تتجدد شجاعته المترددة ويقترب أكثر ويؤكد :

- سترتاحين ! أقسم لك بأنى سأعزّك عزًا ما حلمت به .

تنظر إليه . . الخوف من شىء مجهول يسكن داخل العينين السوداوين . نبض سريع يشل حركة أوتارها الصوتية .

تلتفت إلى الناحية الأخرى حيث أبوها الأعمى يمد ساقيه بينما جيوش الذباب تصطف عليهما بهدوء .

- طبعًا . . طبعًا . . سأكلم والدك . .

ويبتلعها الزحام . . .

* * *

سيول البشر كأمواج من الحركات الآلية . . تشق الطريق عبر هذه السيول . . فارّة إلى الراحة التى تحلم بها ، إلى الوجه الآسر الذى تقتات من رؤيته ، إلى القلب الذى تتمنى أن تكون داخله عرقًا أبديًا .

الشارع يخلو تقريبًا من المارة . . تنتظر الفرصة ثم تدلف من

الباب الخشبى . إنها تعرف كسله ، ستجده يتثاءب مستلذًا بالدفء . . .

رائحة نعاسة تدخل إلى أنفاسها كالطيب . دفء الغرفة يثير فيها شيئًا من الشوق الأعمى الذى لا يعرف إلى أى الطرق يهفو . . تركع ركبتيها قربه . . أناملها تداعب الوجه الناعس . وما أن يفتح عينيه ويراها حتى يجلس متلهفًا .

- فى هذا الصباح الباكر ؟ خير ؟

تحضن وجهه . . وتخشى عليه من الخبر :

- التاجر « أبو محمد » .

يزفر . . . وتنبع الزفرة من قلبه كما تنبع نافورة دمع من أرض حزينة .

- ما له هو الآخر ؟ أيريدك الليلة ؟

- لا . . بل يريدنى كل ليلة . . كل ليلة . . وإلى الأبد .

وترعشه الكلمات ، فينتفض غير مصدق :

- غير معقول . . « أبو محمد » ؟؟ لا أصدق . .

تتراخى الفرحة على وجهها بينما يتآكلها العذاب من الداخل وهى تهمس :

- ولماذا غير معقول ؟ إنه يريدنى .

يقف غاضبًا كجذع شجرة فاجأتها الفأس بضربتها الأولى ويشير بسبابته إلى وجهها " مذهوش ويصرخ باحتقار واضح :

- أنت ؟ أنت التى تبعثرت فى أحضان رجال الحى . حتى المهووس الأرعن « فهد » الذى قال بك القصيد الفاحش فى ديوانيته . . وأمام « أبو محمد » !

فغرت فاها غير مصدقة . . .

الغضب يجلد وجهه فيشوه وسامته ، الرجفة تعتريه فيبدو كسعفة جافة . .

هو لا يصدق ! وهى لا تقوى حتى على مجرد التفكير بتصديق ما تراه . . ذبل كل شىء فيها فجأة ! مات كل عذاب السنوات فى قلبها . لقد فتح جاسم الجرح . . فأغرق كل العذابات السابقة . .

انكفأت تبكى كغزالة غرز الصقر منقاره فى لحمها . .

تحاول الفرار فلا تقوى . . ينقض عليها كالمجنون . . يشدها من جديلتها . يرفع وجهها السابح فى الدموع . . ويستفسر فى جنون :

- وافقت ؟ هل وافقت ؟

تبكى . . ولا ترد . .

لكن صفعته النارية تطلق صوتها فتصرخ :

- لم أوافق بعد . . جئت لأراك . .

ينتشل يده التى تفترس جسدها :

- ولماذا ترينني ؟ وماذا تريدين ؟ أنت قذرة وأنا لا أريدك . . لقد حلفت ألا ألمسك حتى تتحررى من مستنقعك . . . والآن . . .

يضرب بكفيه . . .

- « لا حول ولا قوة » .

ويرتمى بقربها .

- والآن تعلو نظرتك فوق حاجبك . .

عيناه تمتلئان برغبة ! ظنت بأنها ستكنس أتربة الخوف والذهول المزروعة على قسمات وجهها . لكنه حين اقترب أكثر شمت رائحة الرغبة كحد السكين الملطخ بدم الذبيحة .

تحاول الهرب . . لكنه كان أسرع منها . يختطفها من محاولتها . وينهال عليها بجسده . يده المرتجفة تمزق ثوبها بوحشية . صوته كالفحيح السامّ داخل أذنيها :

- هيه . . . فرصة . . يغريك طلب « أبو محمد » ، فتنسين جاسم المحب . . العاشق . . الذى لم يمسّك بعد كباقى الكلاب .

وفى لحظة .. تصير كالزوبعة المسجونة بين الحوائط

- لم أوافق ..

يصك على أسنانه غيظًا ..

- بل ستوافقين .. أمثالك دائمًا ينتظرون الفرصة التى تنتشلهن من الوحل .

تدفعه بكلتا يديها .. لكن مقاومتها تنهار فتصرخ باكية :

- إننى أريدك أنت ...

يبتعد بجسده بحركة مفاجئة .. يلطم وجهه بعصبية . وتسود لحظات صمت متوتر لا يقطعها سوى لهاثهما ...

تلم أطراف ثوبها الممزق .. صوته يصلها ممزقًا :

- لكنى فقير .. لا أملك حتى ثمن ليلة !

تنطبق شفتاها على الصمت . تنتشل عينيها بصعوبة من عينيه . لقد أحست بشىء ما يتهشّم فى داخلها .. مصراع الباب .. أمامها .

فى الليل تأتى العيون

فى بيت « السيد » كنت أقضى جزءًا كبيرًا من الليل .
« والسيد » هذا رجل دين خيّر ، طيّب .. له قامة ممدودة بكبرياء .. يرتدى القفطان ويضع على رأسه عمامة بيضاء نظيفة بلون لحيته الكثة المسترسلة حتى نهاية العنق .

جاء « السيد » من بلدٍ بعيد . حملته رحلته الطويلة من ساحل « إزمير » إلى بلدنا . فاستقبله الناس هنا بطيبتهم التى عُرفوا بها ، واحتفى به بعض رجالات البلد الكبار ، حتى أنهم ، كما أخبرنى والدى ، ألحوا عليه فى البقاء .. لكنه احتجّ بعائلته التى تركها فى بلده البعيد ، فما كان منهم إلا أن أرسلوا فى طلب عائلته . وحتى يضمنوا استقراره نهائيًا زوّجوه إحدى بنات الأسر البسيطة . وهكذا صار للسيد زوجتان رغم أنفه .

فى الصباح كنا نتلقى العلوم على يده فى مدرسة « المباركية » فقد كان يجيد اللغة العربية إجادة أبنائها لها . وفى المساء كنا نتحلق مجموعة من الشبان الراغبين فى الاستزادة من علوم الدين حول

« السيد » فى المسجد ، فنستمع لدروسه وتعاليمه ، مستمتعين بطريقته فى الشرح ، وتركه المجال لنا للنقاش والسؤال والتعليق . ولهذا اختلف عن غيره من علماء الدين الذين كانوا يلقون بخطبهم علينا ولا يسمحون لنا بالنقاش . . أو حتى بالسؤال .

وما أن يُؤذَّن لصلاة العشاء ونصلى ، حتى تنسحب أقدام الشبان مع غيرهم من المصلين ، خارجين إلى بيوتهم عبر الطرق المعتمة الخالية إلا من نفر قليل وبعض الكلاب والقطط الضالة الباحثة عن الزاد بين القمامات ومداعيب [1] البيوت .

أما أنا . . فكنت أرافق « السيد » إلى بيته ، بينما البيوت هاجعة تحت أسقفها الطينية ، وحمائم الصبية ترقد على الأسطح بعد نهار السباقات المتبادلة . والسراجات قد أطفئت معلنة راحتها متنفسّة غازًا يُسمّم رئة الحجرات ، لكن أحدًا لا يعترض على هذا السم . فلا حيلة ولا بديل .

فى البداية رفض والدى بقائى وعدم مرافقة أخوَىّ إلى البيت ، وكرر علىّ مخاوفه من الليل ، والوحدة فى طريق العودة ، ومن الظلام واللصوص . . ومن الجن والعفاريت

---

(١) المدعاب : فتحة يخرج منها المطر من فناء البيت إلى الشارع .

الذين لا يخرجون إلا بعد أن تخلو الطرقات من ناسها ، لكنى أصررت ، وتوسلت لأبى معلنًا رغبتى فى أن أصبح ذات يوم مثل السيد أستاذًا ومعلمًا .. وفقيهًا . وقد ساعدتنى أمى فى إقناع أبى ، لكنها لم تغفل أن تذكرنى « بجنيّات الليل » ذوات الأردية الهفهافة والعيون الطويلة . وحذّرتنى من أن أمر فى الأزقة الضيقة وأن أختار الطريق الرئيسية حتى وإن طال سيرى فيها .

كان السيد يفرح بوجودى .. وكنت أشنّف أذنىَ بما أستمع إليه . أردد .. وأحفظ بسرعة . وكنت أدخل معه فى نقاشات منوعة بعد الانتهاء من التعليم . وسألته مرة :

– هل حقًّا يخرج الجن فى الليل ؟

مسح بيده على لحيته الكثة البيضاء التى تصل حتى صدره ، ابتسم وقال :

– « وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون » .

لم يجب على سؤالى .. فظل يطرق رأسى ملحاحًا ... يغيب ثم يعود .

وفى ليلة ألصقت رطوبتها ملابسى على جسدى فكرت أن أختصر الطريق إلى البيت . فأدخل من « براحة

الزهاميل[1] » وأسير فى الشوارع الضيقة حتى السوق المسقوف [2] .

أحسست بوحشة الظلام ، والصمت ، إلا مِن صوت حرس الليل بين الفينة والأخرى . . يصرخ الأول : « صاحى » ؟

فيرد الثانى من آخر الشارع : « صاحى » .

سرت سيرًا ناعمًا كى لا أثير شكوك الحرس . لكن صوت خطوتى امتد ؛ سمعت شيئًا كالصدى . . تباطأت . . فتباطأ الصدى . . وقفت ؛ فسكن الصدى . . كررت الفعل ، فجاءت ردة فعل هى بالتأكيد ليست لقدمى . ارتعشت ؛ فَسَرَتْ الرعشة ريحًا شمالية فى مفاصلى . . التفتُّ : فإذا بها ورائى . . .

طفلة . هكذا استطعت أن أميّز حجمها ؛ لكن صورتها لم تنعكس فى عينى بكل تفاصيلها الدقيقة ، فالظلام قد خيّم على السوق ولم يكن هناك سوى سراجٍ معلق فى زاوية من زوايا سقف السوق وقد ذبل فتيله . وهو ضوء لا يسمح بالرؤية الشاملة . ابتلعت ريقى . . مرة ومرة . هى صامتة . . وأنا

---

(١) براحة الزهاميل : فسحة واسعة نوعًا ما بالنسبة لضيق الأزقة . . وكل براحة يطلق عليها اسم مثل براحة البحر - وبراحة الدبوس .
(٢) السوق المسقوف : سوق قديم ولا يزال .

أرتعد . . مططت خطوتى . . فمطت خطوتها . . . الرجفة . .
الرجفة لعنها الله تتمادى وتسرى حيثما تجد مكانًا فى داخلى . .
وكان داخلى قد أصبح كالأسفنجة . . العطش يمتص الرعدة . .
يمتصها بلا توقف .

صوت أمى أيضًا يفتح الأبواب داخل أذنى . . يأتينى
فأتذكر : « الجنيات يا عثمان لا تخرج عيونهن إلا فى الليل ،
يعشقن الفتيان أمثالك . . ولا تتورع الواحدة منهن أن تجذب من
يثيرها حُسنه وجماله إلى عالمهن . . تنشق الأرض . . .
وتسحبه . فلا يعود ؛ أو إذا عاد فإنه يظل مسكونًا » .

هل يعقل أن تحبنى تلك الطفلة التى تتبعنى ؟ أم تراها كانت
تفعل ذلك كل ليلة دون أن أدرى حتى عشقتنى تمامًا وهى الليلة
تظهر لتسحبنى إلى عالمها ؟

عيناى فى الظلام تتفرسان فى مواطئ قدمى . . كل خطوة
أخشى أن يكون هناك شق فى الأرض . . فأسقط ، وأتوارى فى
عالم الجن .

وصلت إلى البيت . . كنت متأكدًا من أن أبى لم ينم بعد
وأنه ينتظرنى كعادته فى غرفته التى تقع فى دهليز البيت حيث
يستقبل ضيوفه وأصحابه . يدى تدق الباب . . وتنتفض ؛ فتح

الباب ، يده اليسرى تحمل سراجًا قصرت فتيلته . . دلفت من فتحة الباب بسرعة ، أردت أن أصفقه ورائى ، لكن يدها منعتنى . دلفت ورائى ، وعلى ضوء السراج الخافت لمحت عينى والدى تبيضّان فجأة ففهمت أنها الدهشة .

ثقلت شفتاى ؛ أردت أن أتكلم ، أن أشرح لأبى سرّ هذه الرفيقة الصامتة ؛ لكنه أرخى يده بالسراج ؛ ومدّ يمينه وشدّ على كتفى بقسوة خفيفة وهزّ رأسه وهمس :

- قلت لك ولم تصدقنى !

إذن فرفيقتى جنيّة ؛ فلماذا لم تسحبنى معها إلى عالمهم وفضلت أن تجىء إلى عالمى ؟ إلى بيتنا ؟ ثم ماذا تنوى الآن ؟

يد أبى تحت جمودى :

- اذهب يا عثمان . أيقظ أختك . . لعل البنية جائعة . أطعموها . . وجهّزوا لها مكانا لتنام . .

لم ألتفت ، سرتُ وهى تتبعنى ، وصوت أبى يرتفع بالبسملة والتشهد . قالت لى أمى ذات يوم :

- حين كنا نرى الجن نسمّى بالله فيختفون .

لكن رفيقتى لم تختف رغم بسملة أبى ، بل سارت ورائى حيث تنام أختى . . قطعت معى المسافة ما بين الدهليز

والليوان[1] وكانت الرعشة تجعل مشيتى خفيفة . . كنت كمن يطير .

أيقظت أختى . . وحين فركت عينيها وشاهدت رفيقتى شهقت ، ولمحت فى وجهها هلعًا أرعبنى أكثر من الهلع الذى أطل من عينى أبى . . ترى ، ماذا رأت أختى ؟ هل ألتفت لرفيقتى ؟ حاولت فلم أستطع ، وكان رأسى قد تيبس منذ اللحظة التى سمعت فيها خطوها ورائى . . قالت أختى بصوت مرتجف :

- تعال معى يا عثمان . . أنا خائفة .

رافقتها حتى وصلنا إلى « الملالة[2] » المعلقة فى حوش المطبخ فتحتها . تناولت قدر الأرو . . « وطاسة[3] » اللبن . سكبت كثيرًا فى الصحن ، وضعته على الأرض . . جلست رفيقتى ، أدارت لى ظهرها وقابلت أختى التى كانت ساقاها تنتفضان فتهزّان كل جسدها .

---

(١) الليوان : مكان الجلوس . وهو المكان الذى يحيط بفناء الدار من الداخل . . ويكون مسقوفا .

(٢) الملالة : وعاء من الأسلاك يشبه السلة . يوضع فيه الطعام ويعلق فى السقف حتى لا تصل إليه الحشرات ويستخدم قديمًا بدل الثلاجة .

(٣) طاسة : وعاء مستدير من المعدن يستخدم لشرب الماء .

اندفعت رفيقتى إلى الصحن وفى أقل من دقيقة .. كان الصحن مغسولاً .

وقفت .. رفعت ثوبها .. وكنت أرى مؤخرتها تلمع فى ضوء الليل الوديع . فتحت ساقيها .. وأختى تفتح فمها خوفًا .. واستغرابًا ...

بدأت تبول ، وتبول مثل بقرة على وشك الولادة .. سيل البول كان يشق له فى تراب الحوش مجرى .. وفاحت رائحة كريهة ؛ حين انتهت قامت أختى .. سارت وهى تتبعها .. وأنا أتبع الاثنتين .. ولم أر وجه رفيقتى بعد ذلك .

قالت لى أختى حين جهزت لها المكان ورقدت :

- أرجوك .. يا عثمان ، ابق معى .. أنا خائفة .

هل أقول لأختى إننى خائف أكثر منها ؟ هل أفصح لها أنها قد لا ترانى غدًا .. وأن هذه الرفيقة تبعتنى لتأخذنى إلى عالمهم؟ هل أزيد فى اضطرابها وهلعها ؟

- لا يا أختى .. لا تخافى .. إنما هذه طفلة ضالة .

نفت أختى :

- لا .. إنها عجيبة .. غريبة الوجه .. و ..

- لا تخافى .. قلتُ لا تخافى .. نامى بعيدة عنها .. فى الصباح سنبحث عن أهلها .

* * *

ما أن صاح الديك معلنًا بدء يوم جديد ، حتى كانت يد أبى توقظنى :

- عثمان .. قم .. صلِّ الفجر ثم خذ هذه البنية .. سر معها ، أعدها إلى المكان الذى لاقيتها فيه .

تعوذت بالله من الشيطان .. لم أكن قد نمت ، ولم تهدأ نفسى ، كنت أخشى أن أغمض عينى فأصحو لأجدنى فى مكان آخر غير بيتى .

أديت فرضى .. كانت تنتظرنى مستديرة عنى إلى الجهة الأخرى . انتعلت حذائى ، مشيت .. تبعتنى .. فتحت الباب ، خرجنا .. وحين صفق نسيم الصبح الباب ورائى ، تصورته يُصفق دونى وإلى الأبد .

نور الفجر يتلألأ .. ونسمة باردة تلامس جسدى ، ووجهى المبلل بعرق الانتظار مرتعش وخائف ، هل ألتفت إليها ؟ أحادثها ؟ أسألها ؟أزجرها ؟ أضربها وأهرب ؟ ترددت أكثر من مرة ، وخطوتها المنتظمة لا تزال ورائى ،

توقفتُ ؛ وقفت ، مشيتُ ؛ فمشت ، قطعت السوق المسقوف . . كان الحارسان يشربان الشاى فى إحدى الزوايا .

خرجت من السوق ، انحرفت إلى « براحة الزهاميل » .

من هنا . . . بدأ الخطو ورائى ، وحتى هنا . . كانت خطوتها منتظمة . . . و . . .

وقفتُ ، التفتُ ، فإذا برفيقتى كقطرة الماء التى شربتها الأرض . . بحثت عن الشق الذى ربما تكون قد نزلت منه إلى عالمها العجيب ، لكننى لم أر إلا التراب الرطب يبتسم لى بهزء . أبى يصر على أنها جنيّة . . لكنها لم تؤذنى . . أو تخطفنى لأننا أكرمناها . . وأختى تصلى وتحمد الله . . بينما أختى تؤكد أن لها عينًا واحدة طوليّة . أما أنا فأتذكر ابتسامة السيد حين أسأله عن الجن فيردد :

« قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر منَ الجن والإنس فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا » .

وفكرت ؛ لماذا لا تكون مجرد طفلة تاهت فى المساء ، وما أن وصلت المكان الذى ضاعت منه حتى عرفت بيتها ؟

حين استمع السيد إلى قصتى ابتسم كعادته وقال :

- لا تسهر كثيرًا . . وعد إلى بيتك مع إخوتك .

منذ ذلك اليوم . . قررت ألا أسهر عنده .

آخر الليل

تهمس له من خلال دموعها :

- أنا حامل . . .

ينتزع شفتيها الملتصقتين بأثر الدموع على زنده ويسألها بلهفة :

- ماذا قلت ؟

- أنا حامل .

وترتخى لهفته وتصدر عنه تنهيده يأس يسمع على أثرها تأوّه صدرها .

- أنت لا تصدّقنى يا ناصر . ككل مرة . أليس كذلك ؟

يصك أسنانه غيظًا :

- تزرعين الأمل فى نفسى دائمًا ثم يجىء الدم ليغرق هذا الأمل حتى العدم .

- ولكن الطبيب أكد لى اليوم هذا الأمر .

ويهزأ :

- هه ! كثيرون هم الأطباء الفاشلون أمثال « أم فاضل » .

وتشد على ذراعه العارية وتتوسل :

- أرجوك صدّقنى . . . أرجوك .

ويسحب نفسه منها ويستدير إلى الناحية الأخرى ، وتظل ملتصقة به تراقب آثار « الجَلْدِ » القديم على ظهره الأسمر وبعض البثور الناعمة التى تتناثر بين خطوط الجلد ، كل شىء أمامها يصير كقطعة القماش . تمامًا كتلك التى كانت ترتديها فى ذلك اليوم .

* * *

البيوت القريبة ساكنة . المياه المختلطة بسائل الدم تستقر فى بركة فى وسط الشارع الضيق . ولا يزال « المدعاب [1] » ينز بقية دموعه لتعرف طريقها عبر أخدود الأرض إلى البركة الكبيرة .

الصمت يطبق على كل شىء فى الخارج إلا فى البيت ذى الدرجات الثلاث المهشمة . فى الداخل نساء ينُحن بصمت وامرأة تبكى فقيدها بحرقة ومرارة .

---

(١) المدعاب : كلمة شعبية كويتية تعنى مصرف المياه من الحوش إلى الشارع .

أطفال شقر . وسمر ، وزعهم الله بين الأم والأب . رسم لون الصحراء على وجوه الصبيان وعلق لوحة جميلة من الجمال على وجوه الإناث .

بين اللحظة والأخرى يُفتح الباب الخشبى ذو الفتحتين ويطل وجه طفل يتأمل بركة الماء المختلط بتراب الشارع ودم الميت . وبعد أن تسيل دمعة جديدة يضرب الباب فى عنف وكأنه يريد أن يغلقه إلى الأبد أمام شبح الموت الذى اختطف فى هذا الصباح روح أبيه .

يفتح الباب . تخرج امرأة ملتفّة بعباءتها السوداء المهترئة . تتبعها صبيّة مستديرة الوجه محمرّة العينين . ثم يقفل الباب ثانية دون ضجة ، وتبقى اليد التى يطرق بها الباب تهتز اهتزازًا خفيفًا كأنها لسان شامت .

يبدأ الشارع يتحرك . الناس لا يعرفون غير هذا الشارع ممرًّا لهم . إنه الوحيد الذى يتقبل كل الأجناس . ضيق تملأه الحفر فى وسطه ويعلو من الجانبين . وفى الشتاء يصبح المرور فيه صعبًا ، فإذا سار المرء فى وسطه فلابد أن يخوض فى بركة الماء . وإذا سار على جوانبه فإن قدمه ستنزل به إلى البركة ثانية . وفى الصيف يبدو أكثر وداعة . لكنه فى ذلك النهار الحارّ

كان يستقبل المياه التى غسلوا بها الميت وكوّن بركة من الحزن تأبى أى قدم أن تدوسها .

النساء يخرجن ملتفّات بعباءاتهن ، الأطفال كالأغنام يمسكون بذيول العباءات خشية أن تفر أمهاتهم ، الكل يتحرك . هن يدخلن يسبقهن نواحهن ، ويخرجن صامتات وقد أفرغن كل عذابهن وحسرتهن حول سرير المرأة المنكوبة . إنهن يبكين شيئًا آخر داخل نفوسهن وهى فرصة !

ولكنها تظل واقفة خلف باب بيتها المقابل لبيت الميت تراقب من فتحة كبيرة فى خشب الباب . فستانها أخضر بلون جدار بيت جارهم . به أقلام طولية مزروعة بينها شجيرات وردية وصفراء . جدائلها الفاحمة تنسدل على ظهرها بعفوية . عيناها ضيّقتان بعض الشيء لكنهما لامعتان كضوء نجمة . جبينها المستدير يستقبل بعض شعيرات تعمدت أن تفصلها عن بقية شعرها وتقصها لتجمّل وجهها . أنفها دقيق . وحين كانت طفلة كانت بنات الجيران يهزأن بمنظره ويشبهنه « بالهيب [1] » . شفتاها مكتنزتان وغمازة عميقة

---

(١) الهيب : العتلة .

محفورة فى ذقنها تتسع كلما انفرجت الشفتان عن ضحكة كبيرة .

تطول وقفتها . تنتظر أن ينتهى النواح فى الداخل ويقفل أمام سرب المعزيات النائحات . وعندها يجىء ناصر وتلتقى العيون من خلف فتحة الباب ثم يدلف إلى الداخل صامتًا كعادته . يتوجه إلى غرفته فى السطح وينتظر حتى يجىء والدها . ثم ما عليها بعد ذلك إلا أن تحمل صينية الغداء على رأسها صاعدة بها الدرجات وهى تبسمل كلما رفعت قدمها لتستقبل الدرجة الأعلى . وتنتظر بعد ذلك حتى يشبع والدها ويشبع ناصر - ابن أخته اليتيم - من تناول الطعام لتحضر الإبريق و « اللجن [1] » . وتصب الماء ليغسلا أيديهما .بينما تتدلى جدائلها من الجانبين حتى لتكاد أن تصل إلى « اللجن » .

لكن انتظارها اليوم يطول . إنه يوم غير عادى . ناصر ووالدها شيّعا مع الناس جثمان جارهم إلى مثواه . وهناك سيصلون عليه ثم ينتقلون إلى ديوانية « أبو مساعد » كبير الحى

---

(١) اللجن : الوعاء الذى يستقبل الماء عند غسل اليدين بواسطة الإبريق .

يستقبلون مُعزّيى المناطق القريبة والبعيدة . وقد يتناولان طعامهما هناك . فما الداعى لأن تقف كل هذا الوقت ؟

أطبقت الباب . وأخذت تتمشى فى « الحوش » تلملم بعض الأشياء الملقاة من لعب إخوتها وأبناء الجيران طيلة يوم كامل حاولوا خلاله صيد بعض الطيور لكنهم لم يفلحوا . وبقيت صراصيرهم الميتة بين خيوط الفخاخ غذاء للنمل .

البيت صامت . حتى المطبخ رقدت أبخرته وأدخنته . إخوتها فى زيارة لبيت خالتها . أمها امرأة « وسواسيّة » لا تطيق أن يسمع أبناؤها خبر موت . فيفزعوا طوال الليل وقد يتبول أحدهم فى فراشه . وهى الآن فى بيت الميت إنها أقرب النساء إلى زوجته وواجبها اليوم كبير . عليها أن تستقبل المعزّيات وتشرح لهن بين دموعها وتأوهاتها كيف مات المسكين على غفلة من أهل بيته ، وما أن تنوح وتفلح فى إثارة الأخريات حتى تصمت . وتأتى بالماء البارد وتغمس فيه أطراف أصابعها وتمسح بها على جباه النساء الباكيات .

وحدها فى البيت ، يأكلها الملل ، عيناها لا تكادان تستقران على نقطة ما حتى تنتقلا بسرعة إلى نقطة أخرى تتصورها أكثر اتساعًا . لكنها تفاجأ بأنها أضيق من حفرة غمازتها . فتنهض

واقفة . تعود لتتمشى فى الحوش الترابى ، عيناها تستقران على الصراصير الميتة فى فخاخ الصغار . والنمل يغطيها .

ترتعش خوفًا :

- جارنا اليوم سيدفنونه . فهل سيأكله النمل والدود ؟

تهز يدها غير مصدّقة :

- كيف سيدخل النمل والدود إلى القبر بعد أن يهيلوا عليه التراب ؟

تنتبه إلى أنها قريبة من الدرج المؤدى إلى السطح حيث تتربع غرفة ناصر . فتجلس على أول درجة . تمد ساقيها السمراوين . تفتح أصابع قدميها . تقفلهما ، تحتاج لمساحة أكبر . . ترتفع درجة . . تمد ساقيها على الدرجة الأولى . ثم ترتفع درجة أخرى . . تتوكأ على كفيها وترتفع درجة ثالثة . . ورابعة . . وخامسة . يحمر باطنا كفيها من احتكاكهما بالدرج وتتوقف . . تلفت رأسها إلى الخلف . . خمس درجات باقيات . . لكن باب غرفة ناصر واضح أمامها الآن . . إنه مفتوح !

تكمل زحف الدرجات الخمس الباقيات . . تصل إلى الغرفة . تدفع بابها . . تدلف إليها . . تقترب من السرير الخشبى . . تتمدد عليه . . تحضن لحافه . . تشم داخله روائح

ناصر .. وتعبث يداها بأوراقه وكتبه .. تفتح خزانته . ليس فيها شيء مثير إلا ورقة مطوية حين فتحتها فوجئت بأنها تحتوى بعض خصلات شعرها اللامع .. تبتسم فى غرور ثم تعود وتلف الشعيرات وتدفن الورقة تحت ملابس ناصر الداخلية !

يلذ لها التمدد ثانية ، وترتاح . عيناها فى السقف ورموشها ذابلة .. كل شيء فيها يهدأ ... حتى لون الصحو الذى كان فى عينيها .

* * *

تجهش بالبكاء ...

ولا تفلح معها مراضاة ناصر . ولا تهتم لرجفة يده بل كل جسده . إنه مثلها خائف .. ونادم . لكنه لم يستطع أن يقاوم ! تسحب نفسها من بين يديه وتهرب من الغرفة . الدرجات القليلة التى صعدتها صارت شارعًا طويلاً كثير النتوءات والحفر ، تحس به وكأنه يطاردها ويريد أن يخنق أنفاسها ويشل قدميها .

تنكفئ على وجهها فوق حصيرة غرفتها .. وتبكى وهى لا تدرى ما الذى يبكيها بالضبط .. الألم الذى تحس به . أم الخوف أم الحب !

جارهم مات . . دمه لا يزال يرقد فى بركة الماء فى وسط الشارع . وهى لا تدرى ما الذى مات فيها !

* * *

بعد شهرين من موت جارهم .كانت « وسميّة » تنتظر لحظة رهيبة . إنه قدرها . اليوم يتحدد مصيرها .

« أم فاضل » تدخل البيت بوجه وحشىّ . أسنانها الصفراء بارزة . عيناها مغروستان داخل تجاعيد وجهها كبذرة منسيّة داخل عجينة فاسدة . شعرها المفروق فى الوسط أحمر يختلط بلون الحنّاء ينبئ عن بداية صلع سيحتاج لغطاء كلى . شفتها السفلى مدلاة تلمع دائمًا ببصاق جديد يتدلى بدوره إلى أسفل فى خط عمودى لزج .

تدلف إلى الداخل . . أمها تسرع لتقفل الباب بالمزلاج . ترى الشرر يتطاير من عينى « أم فاضل » . ترتعش . . تعود خطوة إلى الوراء . . ثم خطوة . . وأم فاضل تقترب . . ماذا فى الوراء هذه المرة ؟ حين مات جارهم كانت تعود للوراء حتى وصلت إلى غرفة ناصر واليوم تعود . . وتعود حتى تحس بمقبض غرفة أمها يصفع عظمة ظهرها . و . . تدخل . .

صرخة واحدة . . .

ولم تعد تعى شيئًا . . . وكان آخر ما رأته عينى « أم فاضل » وفيهما أشكال وألوان من الغضب !

* * *

ينتصف الليل . . و « وسمية » لا تزال مبحلقة فى السقف وأنفاس إخوتها تصلها منتظمة دافئة ، وفى الغرفة الأخرى همسٌ غريب ما تعودته قبل الليلة .

تترك فراشها البائس وتلتصق بالباب الذى يفصل غرفتها مع إخوتها عن غرفة والديها . فيصلها الهمس أكثر وضوحًا . صوت أمها يحاور الصمت الذى هو إجابة .

- ناصر لابد أن يتزوج وسمية .

- . . . .

- غدًا لابد أن تخبره بهذا .

- . . . .

- كثر الله خير أم فاضل التى خلصتنا من الفضيحة .

- . . . .

- هل تريد ابن أختك أن « يُعَنّس » البنية وهو مكتوف اليدين ؟؟

يظل الصمت حائلا ما بين صوت أمها ورد أبيها حتى تشعر

بالملل واليأس وقد تسرب إلى لهجة أمها الحزينة المفجوعة . فتجر نفسها ثانية إلى فراشها فى محاولة جديدة للتغلب على الأرق .

* * *

فى الصباح رفض ناصر أن يرضخ لرغبة خاله بالمعروف وبالحسنى . لكنه ما أن أحس بلسع السوط الجلدى على ظهره حتى صرخ مستسلمًا !

- أمرك يا خالى .. أمرك .. بس إرحمنى !

وبعد ثلاثة أيام فقط .. كان الأمر حقيقة واقعة وكانت « وسمية » تداوى فى الليلة الأولى جراح ظهر عريسها .

* * *

يتحرك ناصر فى عصبية . وتتوجس وسمية خيفة منه . يلتفت إليها فجأة .. ويصرخ :

- هل أنت واثقة مما تقولين ؟

ويستدرك :

- أقصد ما قاله لك الطبيب ؟

وتفرح وسمية بتساؤله وتهتف بفرح :

- أجل .. والله يا ناصر ، هذه المرة لا أكذب عليك . . .
أنا حامل .

يعجنها بين يديه بشوق :

- أخيرًا .. بعد خمس سنوات من الانتظار والقلق والحرمان .

يمسح على شعرها بحنان . فتهدأ بين ذراعيه بينما تسمع شفتيه تهمسان فى آخر الليل :

- لعنة الله عليك يا أم فاضل أينما كنت . حتى وإن كنت فى قبرك .

وتنام . . . قبل أن تطمئن إلى أنه لم يعد يتقلب فى سريره .

لعبة فى الليل

فى النهار تتلون عيناها الطفلتان بلون الورد الأحمر كلما تلاقتا مع صورة الأم تحضن طفلها إلى صدرها . تلك اللوحة الجبارة بمعانيها التى لم تعرف معنى منها قط . تهزّها اللوحة التى حفرتها أنامل أختها على الحائط المقابل ، ولونتها بالفحم الأسود ، وملأتها حنانًا أموميًا هى لا تعرف كيف استطاعت أختها المحرومة أن تجسّده فى اللوحة ، رغم أنها عانت الحرمان مثلها .

وفى الليل . . . تسهد العينان الطفلتان . . . تتلوّنان بلون الليل الأسود . . . وجراح النهار الحمراء التى حمل بهما صفاء العين . . . فينزف صامتًا حين يهبط الجناح الرماديّ على الأرض . . . فتغفو كل العيون ، إلا عينيها .

من أين يأتى النوم ؟؟ وهنا . . . فى كل أوصالها تتبدى الرعشة مثل شكة الدبوس الحارق . . . والخوف لسان خشن يمتد إلى كل الجسد . . . يبـلله بالعرق وبالدّبق .

– الآن تأتى . . . بعد قليل ستأتى . . . متى تأتى ؟؟

هكذا تحادث النفس نفسها . . . وتتوقع خطوات زائرة الليل . فربما تزور المكان وهى مستيقظة فتراها العين وتصدق !

كيف تأتى الزائرة ؟ وكيف تتحرك ؟ وما الذى تسرقه ؟

- إنها تسرق الكحل من العين .

إذن : لماذا يبقى الكحل الأسود ملطخًا عيون تلك المرأة - زوجة أبى - لا تسرقه زائرة الليل ؟ عيناها تتقرحان . . . تشكو السهر . . . تتوسل أن ترتاح لكن الخوف يرفض التوسل . . . يوقظ الانتباه . . . فكيف تنام ؟ تتأوه :

- زوجة أبى تأمرنى . . . تقول لى : نامى . . . تهدّدنى بأجنحة الخطر وتقول نامى . . . فكيف أنام ؟ هل يستطيع من يتوقع الخطر أن ينام ؟ فلتأت الزائرة إذن . . . ولتحملنى إلى دنيا بعيدة مبهمة . . . فمن يدرى . . . لعل زوجة أبى تكذب . إنها تكذب على أبى كثيرًا . . . فما الذى يمنعها من أن تكذب علىَّ ؟ وتصور لى الزائرة بتلك الصورة . . . وترعبنى وهى تقول أنها ستأكلنى . . . لم لا تكون الزائرة حنونا وتحب الأطفال . . فتحملنى إلى مكان أكثر أمانًا ، وأعمق حنانًا ، وأطيب أرضًا ؟ وتحمل معى وجه أختى الحانية ولوحة الأم التى تحمل طفلها محفورة لا تمحوها ضربات الزمن على الجدران . . . إلى دنيا

لا أرى فيها وجه زوجة أبى الذى تصفعنى قسوته طول النهار . . . ثم يهذدنى فى الليل . . . فأنتظر . . . وأتوقع . . . وأتساءل :

– متى ستأتى ؟ متى ستأتى ؟

* * *

السماء صافية لا تزال . . . مثل كل ليلة . . . والنجوم تترامى بدلال هنا . . . وهناك . . . عرائس تنتشر كحبّات الماس تتلألأ . . . تطمع كلها فى نظرة يرسلها القمر المارد الممتد فى العلياء . . . رجلاً مغرورًا . . . يبهر بريقه كل النجمات ، فتتمنى كل واحدة لو تكون تحت البريق . وعيناها تبرقان . . . والخوف بداخلها رغم ما تتصوره عن الدنيا التى ستحملها إليها الزائرة .

تلين أطرافها قليلاً . . . تحرك ساقيها . . . ترفع رأسها الصغير وتستدير ناحية « غرشة » الماء ، فقد فاجأها عطش تكره أن يفاجئها فى الليالى المقمرة حيث كل شىء يُرى . . . وهى تخشى أن تلمحها الزائرة فتخطفها . . . تثير حركتها صوتًا . . . تتحرك أختها الراقدة بسلام قربها :

– لماذا تقومين ؟؟

- أريد قطرة ماء .. حلقى جاف .

تشير أختها ناحية « الغرشة » :

- الماء هناك ... قومى واشربى .

تهز أختها بلطف :

- قومى معى ... أنا خائفة .

تنتصب الأخت فى جلسة سريعة فى فراشها المبلل برطوبة الليل :

- تخافين ؟؟ممَّ ؟

تستغرب سؤال أختها :

- ممَّ ... وتسألين مِمّ وأنت تعرفين ؟

يبدو ضجر فى وجه أختها راسمة اللوحة :

- أعرف ماذا ؟

- قالت زوجة أبى إن ...

بخفة تجد كف أختها تغلق فمها الجاف :

- هُسْ ! لا ترددى هذا ... قلت لك ألف مرة لا تصدقى هذا الكلام .

فى محاولة للتبرير تبعد كف أختها وتؤكد :

- ولكن ! حمام جارنا وجدوه مقتولا .

- قلت لك إن القطة هى التى فعلت ذلك .

- و . . .

وانبرى صوت أختها محتدًا .

- ستقولين وبركة الماء التى جفت ! فأقول لك إن الماء تسرّب فى الرمل . . . وستقولين عن القدور التى لا نجدها ! فأؤكد لك أن زوجة أبى تعطيها لأهلها من أجل أن يحضر أبى غيرها . . . و . . . ستقولين كثيرًا مما تسمعين . . وأقول لك إنه هراء . . . وأكاذيب .

- ولكن ! الأجنحة ! الصوت ! الظلال !

- فى الليل تكثر الخفافيش !

- خفافيش ! لكننى . . .

تقفز أختها من الفراش مسرعة ومقاطعة :

- لكنك عطشى . . . وسأحضر لك . . ستشربين وتنامين ولن تفكرى بعد فى ما تقوله هذه المرأة .

تسحب الماء داخل فمها من طرف الغرشة . . . تجرعه إلى جوفها محدثة صوتًا أشبه بالركض على أرض أسمنتية . ثم تنطرح على وسادتها و . . . عيناها نحو السماء الصافية . . . وكلها يرتعش بانتظار الزائرة .

- « أم السعف والليف » ساحرة . . تأتى فى الليل ، عيونها إبر حمراء وفمها يتسع للآدمى . . فإن رأت طفلة لم تغف عيونها بعد ، فإنها تحملها إلى مكان بعيد . . . وتأكلها . . .

تزم عينها حين تطرق أذنيها كلمات زوجة أبيها تلك . . . تنكمش على نفسها كقطعة من الصوف وضعت بطريق الخطأ فى ماء بارد . . ترتعش . . . وتتساءل :

- فى الصيف فقط تأتى . . . لماذا لا تأتى فى الشتاء حين أكون وأختى فى غرفتنا ؟

آه يا « أم السعف والليف » لو تعلمين كم سرقت منى الليالى . . . فلم أذق طعم رقادها . . .

والليل المضىء بقمره ونجومه يأتى ويرحل . . . وعيناها فتيلا شمعة لا تنطفئ . . ومتى انبلج الصباح كثغر طفلة تفرح رغم حزنها . . وتلمح صورة الأم المحفورة على الحائط تدمع وتقترب من الصورة . . . تلامسها ببقايا الدموع وتتساءل :

- لماذا لا تكونين أمى ؟ وأختبئ فى صدرك كهذا الطفل ؟ عصفورة تبحث فى غابة الشوك عن الأمان ؟ لماذا لا يكون الليل مثلك حانيًا يحيطنى بذراعيه كما تفعلين لهذا الطفل . . . فيحمينى من « أم السعف والليف » ؟وحين تبعد أناملها عن اللوحة يكون

الفحم قد لوثها بلون الليل . . . فتذكر الليل هامسة :

- لماذا يأتى الليل ؟؟

والليل يأتى كل ليلة . . . قمره يأتى . . . نجومه الساحرات المغريات كأثداء تتدلى تأتى . . وزوجة أبيها تنام مرتاحة قرب أبيها الذى لا يعلم بسر الساحرة . أو ربما رآها حين كان طفلاً وهو الآن لا يخشاها . عيناها فقط تسهران . . . تترقبان . . . ثم لا يلبث النهار أن يطلع . . . فلا تدرى إن كان السهد قد سامرها أم أن إغفاءة حنونًا غمرتها دون أن تشعر بها .

وتأتى الساحرة أخيرًا .

النسمات تهب باردة رطبة . . . تنذر بدخول الشتاء . . . بعض الندى الخفيف يتقاطر . . وثمة ضباب يحجب ضوء القمر . . وعرائسه المدلّلات الطامعات بليلة عشق مع الرجل الأنيق . . والصمت يجثو على المكان ضيفًا ثقيلاً يعطى للأذن فرصة أكبر لالتقاط همسة النمل تحت الجدار . . . وهى تكره الصمت !

عيناها تتحركان كعينى ذبابة ، ترصد كل الأنحاء . . . هنا فراش أختها . . وعن يمينها الفراغ . . . وفى زاوية السطح الشرقية « كرسى خشبى » جدّلت أخشابه الرفيعة بشكل مربعات

متساوية طولية . . وعرضية . . فيه فتحتان من أعلى . . تنتصب في إحداهما غرشة الماء . . . وفى الثانية « برمة [1] » أكبر . . . فى طرف الكرسى ربط حبل تدلّى حاملاً كأسًا معدنية يشربون بها الماء . . تحت الكرسى يرتاح سطلان يستقبلان الماء النازف من البرمة والغرشة وهو فى الصباح ماء للدواجن رغم نقائه وصفائه من التراب الأحمر . فى الناحية الأخرى علبة صفيح مبعوجة هى « بيت الراحة »الذى تستعمله هى وأختها إن فاجأتهما الحاجة ! وفى الصباح تحمله أختها لتصبه عند « مدعاب » البيت فيختلط بتراب الشارع .

وهناك باب صغير يفصل مكانهما فى السطح عن مكان والدهما وزوجته . تغلقه المرأة عادة قبل أن تنام . ويفتحه والدها فى الصباح الباكر منسلاً إلى الدرج المؤدى إلى حوش البيت .

فى تلك الليلة لا يبيت أبوها فى البيت . فعنده نوبة حراسة فى السوق الكبير . . وزوجة أبيها تلح عليها أن تنام . . لكنها لا تنام . . . تذكرها بالساحرة . . . فلا تنام . . . حتى عندما دخلت المرأة سطحها وأغلقت الباب . . انتبهت عيناها إلى أن

(١) برمة الماء : آنية فخارية لتبريد الماء .

الباب لم يغلق تمامًا مثل كل ليلة . . . بل كان مواربًا ينعكس ظل شقه الطويل على أرض السطح .

السكون يطبق على المكان . فلا يثير نفسًا لشىء وعيناها تنتقلان فى اتجاهات السطح . . . وتطل إلى الدرج الذى يبدو معتمًا إلا إذا تحرك الضباب وانزاح عن وجه القمر . . فيبدو وكأنه مغارة عميقة . من هناك . . . ينطلق الصوت : خشخشة أجنحة ولهاثًا متعبًا . ثم رأس يطل !!! يا إلهى . . . لقد جاءت الساحرة أخيرًا . . .

وانكمشت . . . صارت قطعة من الإسفنج تبللت ثم أهملت فجفت وخمد فيها كل شىء إلا عينيها المصرتين على رؤية الساحرة !

الجسد القادم من مغارة الدرج يرتفع . . . يستطيل ، ينتصب أخيرًا كاملًا ثم يمشى بحذر شديد . . . لا يؤكد قوة حدثتها عنها زوجة أبيها . . .

تتأمل أكثر . . الرأس كرأسها . . الجسد جسد لا يختلف عن جسد والدها . . إلاّ أنه أكثر شبابًا !! الذرعان فقط مختلفتان . . هما جناحان ! لكن حفيفهما كلما خطت الأقدام خطوة لا يدل على أنهما جناحا طائر . . . فهى تعرف حفيف الأجنحة حين يتطاير

حمام الجيران . . أو حين يحلق « أبو حقب [1] » مطاردًا الحمام .

مَمّ تراها مصنوعة أجنحة هذا الساحر ؟؟ تتسع حدقة العين . . . هى تريد أن تعرف . . . أن تتأكد أن الذى تراه حقيقة . . . ها هما الجناحان . . . مستطيلات من « السعف » تلتصق بعشوائية على الذرعين . الجسد يمشى ، يدنو من الباب الموارب الذى يفصل ما بين سطحهما وسطح أبيها وزوجته . . .

اليد الطويلة تمتد . . . تدفع الباب الموارب . . . يدخل بخفة .

– يا إلهى . . . الساحر سيرى زوجة أبى وحيدة وسيسرقها .

لحظة أرادت أن تحس بالفرح ، لأن الساحر سيسرق زوجة أبيها . . . لكن حنانًا غريبًا يُثار داخل صدرها . . . فيقتل الشعور بالفرح . . . ويتمنى ألا يصيب المرأة مكروه . . . تحرك ساقيها بشجاعة . . . وقبل أن تغادر الفراش تنصت لأنفاس أختها تتأكد أنها مستغرقة فى نوم عميق . . . وتنفلت إلى الباب الفاصل . . .

تنصت !

---

(١) أبو حقب : النسر .

لا تسمع شيئًا . . لا صوت ينبئ بصرير أسنان تمزق اللحم . . . ولا آهة توجع . . ولا حركة مقاومة . . . تدفع الباب بحذر !وتقع عيناها على أجنحة السعف ملقاة على الأرض .

يدور شيء فى رأسها وهى تشاهد الساحر يشارك زوجة أبيها الفراش . . . طنين هادر . . . وسؤال يتجرأ ويلح :

- ترى ! ما هذه اللعبة الليليّة التى يمارسها الساحر مع زوجة أبيها !

الإشاعة

فى تلك الليلة فقط ... تغيّر كل شىء .

عصف عاصف الخوف .. فمزّق خيوط الألفة الرخيّة ، وانبلجت أسنان الرعب تهرس رغبتنا كلما فكرنا بجمع الشمل فى مكاننا المعهود الذى شهد نماء الحب وصفاء الأمسيات .

* * *

كنا نعود ملتحمين ... نغنى بأصواتنا الجماعيّة التى يرقص لها ضوء المساء .. وتتطاير حولها النسمات حاملة الصدى الأليف ... لكن « شهابو » برز فجأة بدشداشته القصيرة الممزقة دائمًا ، فقطع على أقدمنا الحافية سيرها الوئيد . حملق كما يفعل دائمًا .. ولعابه اللزج ينحدر إلى صدره الذى تعرّى ... وصرخ :

- إياكم أن تأتوا هنا ثانية .

ماذا ؟ انتقلت نظراتنا ... والتقت سريعًا .. وقبل أن ينطق أحدنا باعتراض صاح بصوت خائف متهدّج :

- هناك ... فى تلك « الربعة » يسكن جنى !!

تصادمت نظراتنا السريعة . . نظرات شك ، لكنه أردف حين شعر بشكوكنا :

- لقد رأيته بعينىّ . . وحين أطلقت عليه كلبى تجمد الكلب هناك . . . انظروا . . .

والتفتنا . . . إلى الربعة التى شهدت كل شىء . . . فإذا الكلب ملقى . . . وقد تدلى لسانه منحسرًا بين فكّين مبلّلين .

دفعنا به . . . ونما الشوك فجأة تحت الأقدام العارية الطرية . فأطلقنا السيقان . . . أجنحة فراشيّة تبحث عن الفراغ لتطير . . . حتى إذا وجدت الزهرة المنتفضة على غصنها هجعت بارتياح . . . وكانت بيوتنا الزهرة التى قصدناها لا نلوى على شىء .

* * *

وهجرنا « الحوطة » .

هجرنا الأحياء الضيقة بعد أن كنا كل ليل نعبر طرقها الأليفة . . ونتمشى بين البيوت الطينية الواطئة . . نشتم روائح الأبقار والأغنام المربوطة فى أحواشها وتحت « عرشانها » ونستمع قوقأة الدجاج والأفراخ فى دهاليزها ذات الأبواب الخشبية الشامخة بأصالتها . . . الخالية من الأقفال والحديد

. . . إلا من « مقحام خشبى » تمتد فى آخر الليل يد الرجال لتغلقه . . . وتحمد الله .

وكانت عيوننا تتابع الهررة المتحابة على الأسوار الندية التى تلوح فى شقوقها بقايا الشعر الإنسانى أو كسر الخبز الجاف التى امتدت أيدى المارة إليه لترفع من شأنهم السماء .

نمشى . . . واعتياد أليف صادق يشدنا كالحزمة القوية . . . حتى نصل إلى مقر لهونا . . . وأنسنا . . . إلى الحوطة التى تشهد كل ليلة أنواع لعبنا . . . وبراءتنا فكنا نتقاذف بالحصى . . . ونغطس فى ماء المطر المتجمع فى الحفر . . وندك الأرض برجل واحدة . . . نتسابق . . . والذى يصل إلى الربعة يفوز بالجائزة . . .

- ماذا نلعب الليلة ؟

وقبل أن نتفق يكون « شهابو » قد مرّ بصراخه وعبثه وأكوام العلب الفارغة التى يربطها بالخيوط ويحلّى بها رقبته . . وساقيه . . ورأسه فيصرخ :

- لاعبونى معكم . . « أنا المجنون . . آكلكم » .

لكن أصواتنا الرافضة تسد فى وجهه باب المشاركة ونلحقه

بالعصى ... والحصى .. فيهرب فارًا بينما نعود متضاحكين ... متسائلين :

- ماذا نلعب الليلة ؟؟

- اللقصة .

- اللبّيدة .

لا .. نلعب « عماكور طاح فى التنور » .

وأخيرًا يقترح صوت :

- نلعب « إحدّية أبديّة [1] » .

فوافق .. نتحلق بدائرة .. فتمتد أكف البنات المحنّاة جنبًا إلى جنب مع أكف الصبيان التى شققها البحث عن « القبانى [2] » تحت « سيسان [3] » البيوت والشوارع .

نرص الأكف وننحنى ، حتى تكاد رءوسنا المتقاربة تصطدم . وتدفع «قماشة» بسبابتها الطويلة داخل فمها .. تخوضها فيه تقفز بها من كف إلى أخرى بحركة دائرية وهى تغنى

---

(١) اللقصة ... اللبيدة ... عماكور طاح فى التنور ... إحديّة أبديّة : كلها ألعاب شعبية كويتية .

(٢) القبانى : دود الأرض .

(٣) السيسان : أسس البيت تحت الجدران .

بصوتها المبحوح بينما تغنى شفاهنا بصمت كلمات الأغنية :

« إحدّية أبديّة . . ناصر ديّة . . حط الكور على الزنبور . . يا قناص . . قوم اقنص . . شبط خيلك شبطها . . باب الحلة وباب الشام . . مريت على غرابين . . . يأكلون سحتين . قلت يا عمى يا بو حسين . . كم يوم على رمضان . . . سبعة أيام والتمام . . وحاديها . . . وباديها . . واضرب الخيل معاديها . . خرجة برجة طاحت بالماى قالت تش » .

وتنتهى الأغنية . . وتكون السبابة قد استقرت مع نهايتها على آخر كف . . وتبدأ المساومة :

- « تريد قرصة الحيّة . . . أو العقرب ؟ » .

والعقارب فى الليالى الحارة لا تتركنا . . عدو يترصد أقدامنا الحافية . . . ويفرغ سمه الأخضر فيها . . ويفرق الجمع الأليف .

و« شهابو » عقرب آخر . يثير الضجر والرعب أحيانًا عندما يختبئ فى الزوايا . . . أو الأحياء المظلمة ويصرخ فى وجوهنا فجأة . . ويسعد حين يهز الأمان المستقر فى نفوسنا . . وكان اهتزازًا مارقًا كالبرق لا يترك أثره . . . ولا يحرمنا من اللقيا رغم إصراره على تكرار فعله .

أما فى تلك الليلة ، فقد تغيّر كل شىء . . . وحبلت النفوس الصغيرة برعبها حملاً ثقيلاً .

سكننا الخوف . . تفشى فى صفوفنا كما يتفشى السل فى الرئة السليمة . . فمرضت ليالينا الهادرة التى لم تعتد السكون الرتيب . . . وعشنا فى انكسارنا نجتر الذكرى . . ونختصر اللقيا على النهار . . حتى يذبل قرص الشمس . . . ويفوح لونه الوردى معلنًا بداية ظلام الأمسيات . . نتوادع . . كل إلى بيته . . . نسكن ونفكر . . « بالجنى » الذى سكن « حوطتنا » فكدر ليالينا وانتزع أماننا كما تنتزع جذور السدرة من أرضها . وتساءلت عيون الأهل وألسنتهم . . وخشيت فرقة الصغار . . ربما هو الشجار الذى سرعان ما يذوب فى إناء طفولتهم . . . لكنه قد يمتد فيصل الكبار الذين قضوا سنواتهم أهلاً . . . وأحباء . . يخشون الفرقة والكدر لكننا لم نجرؤ ، وكأن « شهابو » قد زرع موسى حادة فى حلوقنا نخشى لو حاولنا البوح أن نذبح أعناقنا . . ولكن : إلى متى؟ والشوق لدفء الليالى وأنسها ينغل كالنمل الجائع فى صدورنا .

- إلى متى ؟

نطقها مسعود . . .

وانفرجت الأسارير . . تلك هى المرة الأولى التى يصدر فيها السؤال إلى الجماعة . . .

إذن . . لابد من الحوار الحازم . . . والوصول إلى قرار . . .

- لماذا صدقنا شهابو ؟؟

سأل خالد . . وأجابت قماشة :

- ربما كان يكذب . . .

وانبرى محمد . . . صديقنا السمين . . . وتلته أصوات :

- إنه يكرهنا . . .

- لأننا لا نلاعبه معنا . .

- لأننا نسخر منه . . .

وأطلق فهد عبارته :

- ما رأيكم ؟؟

وبشغف الغريق إلى قشة صحنا بصوت واحد :

- رأينا فى ماذا ؟

قال والإصرار مرتسم على أنحاء الوجه الأسمر :

- نجرب الربعة !!

ودفعنا الهلع الذى احتكرنا دفعة واحدة . . . فهببنا واقفين تتداخل أصواتنا المرتجفة :

- لا . . نخاف . . . الجنى . . الموت . . لا . .

لكنه رفع ذراعيه مهدئًا فبانت قرحته الجافة :

- أنا مستعد أن أجرب . . فقط ساعدونى . . هل توافقون ؟؟

جالت عيناه تبحثان عن إجابة . . لكننا جميعًا كنا ملجمين فكرر قوله وأكد أنه مستعد لهذه المغامرة من أجل أن تعود ليالينا مشرقة فوعدناه . . .

وعدناه أن نأتى فى الليل إلى الحوطة . . لكننا أخلفنا . كان الخوف واحدًا يترصد بنا . . لكنه اليوم أصبح توأمًا بالخوف على صديقنا فهد من الموت .

ورغم سنواته القليلة ، كان فهد شجاعًا بإصراره وعناده . . وحلمه أن تعود الليالى الفارّة إلى مأواها . أخذ يتوسل . . لكن التوسل إلينا كقطرة الماء التى تصب فى يوم قائظ على الرمل . . .

وبكى مرتين . . لكنه لم يلق شفيعًا ولا نصيرًا . . بل تضاحكنا نهزأ من دموع الرجال !

وأخيرًا هدّدنا بالانفصال عن الجماعة . . . فخشيت القلوب انتزاع شريان من شرايينها .

وافقنا .

* * *

اصطففنا عند باب الحوطة . . أجسادنا المتلاصقة لحمًا وعظمًا . . يُعلن صوت ارتجافها مدى الهلع الساكن فى كل شعرة .

و . . . بدأ فهد يبتعد . . . وعيوننا تشيعه دمعة مبتهلة . . حتى اقترب من الربعة . . . وكانت أرواحنا قد وصلت حلوقنا .

وصل . . فاستدار نحونا . . وصار ظهره ذو العظام البارزة ناحية الربعة .

وقف شجاعًا . . يرفع كلتا ذراعيه إلى جانبيه وبدأ يعود إلى الوراء . . . إلى الورا . . إلى الور . . إلى الـ . . .

ودوت الصرخة . . . !!

وأحدث الدوى انفجاره . . . فطارت السيقان تقلع التراب من مكانه . . غير مبالية بالأحجار والمسامير وقطع الزجاج المتناثرة .

وتفتحت أبواب البيوت بعنف . . . وانصفقت باحتجاج :

ولم تهدأ الأجساد . . . ولا العيون . . . عرفت الكرى بانتظار الصباح .

* * *

صاحت الديكة ! فتوقعنا صرخة تشق عباب الصمت الحرون الذى أزّمنا . . . أين الصرخة التى ستعلن نبأ موت رفيقنا ؟!

ومتى تسحب الأمهات عباءاتهن السوداء التى غزاها الاخضرار وينهمرن على بيت أم فهد انهمار السيل نائحات مواسيات ؟؟ ومتى تخف أقدام الرجال بنعالها النجدية لتتحلق حول تخت الغسول يشارك بعضها « الغسال » فى لف الكفن وتعطير الجسد الصغير بدهن العود وماء الورد ؟!

* * *

الصمت . . . ولا شىء سواه . . .

بدأ تناغم الأصوات التدريجى . . صوت الأحياء تتنفس بعد أن أعلنت أصوات الديكة عن انبلاج الصبح . . . لا شىء يثار ، ولا حزن يعلن . . .

واجتمعنا . . . تحدونا رغبة ملحاح لمعرفة مصير رفيقنا

فهد . . تهامسنا . . . وقررنا أن نذهب إلى بيت فهد . . . نسأل عنه . . فإن وجدناه اطمأنت النفوس . . . وإن لم نجده سنصارح أمه بالخبر المشئوم . . . ولن ننسى أن نعلن خبر « جنّى الربعة » .

* * *

ما أن فتحت أم فهد الباب . . وانشق انشقاقة نصفية حتى لمحنا فهدًا مستلقيًا فى حوش البيت على فراشه . . وقدمه اليسرى مربوطة بخرقة حمراء منقطة . . .

دلفنا . . . وحين تأكد من اكتمال عددنا صاح فى وجوهنا :

- أيها الجبناء . . لقد هربتم فى اللحظة التى كنت فيها بحاجة لمساعدتكم . . .

تلعثمنا . . . وتقدمنا نحوه مسرعين نتساءل :

- هل خرج الجنى ؟

- هل لمحته ؟؟

- هل . . . وانزلقت عيوننا إلى قدمه المربوطة :

- هل قطع قدمك ؟

- هل . . . وهل . . .

الشىء الكبير من السؤال . . وأم فهد ترقب المشهد باسمة آمنة . . .

- اجلسوا يا رفاق . . .

تهاوينا على فراشه الذى بـلله ندى الصباح . .

ابتسم لنا . . .

- اسمعوا . . . لقد كانت إشاعة أطلقها شهابو المجنون

. . . وتعرفون بالطبع قصده . . .

ليس هناك من جنّى . . ولا من يحزنون . . لقد كانت

صرختى صرخة ألم واستنجاد . . . زجاجة مكسورة انغرست فى

قاع قدمى . . وكنت بحاجة لكم . . لكنكم هربتم . . .

قاطعه مسباح بتوسل من يطلب العفو :

- ظنّنا الـ . . .

- أدرى . . . أدرى . . .

وضحك حتى استلقى فبانت فى ساقه قرحة أخرى .

موت اللبلابة

هذيان المطر يتواصل ، الغيوم عباءات يشق سوادها التماع البرق . الريح مهتاجة تجتث مناجلها رءوس الأعشاب ، وتُطايِرُ ريش العصافير اللابدة تحت مظلات النوافذ .

هى خلف الزجاج المزخرف بخرائط القطرات ، تلصق وجهها على سطحه البارد ، عيناها مركزتان على اللبلابة الناتئة من قلب الأرض . متسلقة خيطها إلى حافة السطح ، تأملتها ، تفرّست بأوراقها الخضراء النامية . وتلك الصغيرة المندسة بين الفروع كأطفال يندسون فى حضن الأم ، يحتمون من البرد ومن أحلامهم المرعبة . الريح تحاصرها ، تنتفض كأنثى يطاردها مزاج رجل مجنون ، تحاذى الزجاج ، تصفقه ، كمن تود اقتحام الغرفة بحثًا عن الدفء والأمان . أثارتِ اللبلابة المتأرجحة شفقتها ، همست بسرها : « لا حماية لك داخل غرفتى . لو كنتِ مكانى لعرفت كيف يكون للغرف المغلقة صقيعها الحارق » .

تذكّرته ، نغل الحنين بأعماقها ، تمتمتهُ يخترق عويل الريح .

ينتصب أمامها ، يثير بإعصاره شوقها القديم للركض تحت المطر ، تتدثر بذراعيه الدافئتين ويتسربان لذلك المقهى . يتحد بخار قهوتها بوشوشة الشوق المنسكبة فى الفناجين وصوت فيروز يحتفل « برجوع الشتوية » .

هذا نهار لا يصلح إلا للحب ، لكن واقعها المر يصفعها ، يبعثر أحلامها شظايا حادة ، شعرت وكأن روحها تذوب كنجمة .

تحسّست جسدها المتعب ، عانقت صدرها بذراعين مرتجفتين ، خصرها ، أردافها .. ودت لو تسلخ جلدها الميت ، تغتال وجعها وتنفلت عارية تحت سماء تنذر بالوعود . تأوهت ، تعرف أنها لن تخرج لتقطف وعدًا واحدًا . بل مرغمة ستواجه غضب الطبيعة . تلقم أمنياتها لشوارع مكتظة بجنون السيارات وأنياب الموت .

أسدلت الستارة بوجه اللبلابة . تأهبت للخروج .

دسّت كفيها داخل القفازين ، تدّثرت بمعطف المطر ، اندفعت إلى السيارة ، أدارت المحرك . كادت تنفلت بها . دغدغها صوته :

- السيارة كالمرأة ، لا تطاوع قبل أن تمتلئ بالدفء والحنان .

انتظرت ، عناقيد المطر تتساقط وتنفلش على الزجاج الذى استراحت عليه أوراق الشجر الصغيرة . حركت ماسحتىَ الزجاج الأمامى فانزلقت الأوراق وكأنها بعض أمانيها المبللة باليأس .

زمجر الغضب بداخلها ، تسرب حتى قدمها ، داست بعنف فانطلقت السيارة إلى شوارع تنفرج وتضيق بفعل قنّاصة الحفر وآليّاتهم . توقفت عند مكتب البريد ، زجت الرسائل فى فم الصندوق الأصفر سمعت خشخشة ارتطامها بالرسائل الأخرى ، دخلت المبنى ، اتجهت لصندوقها الخاص ، هطلت الرسائل منه والطرود . خفق قلبها ، حضنتها ، دثرتها تحت البالطو وهى تقطع المسافة إلى سيارتها . حين استقرت خلف المقود فردت الرسائل ، قرأت الأسماء ، بحثت عن رسالته ، شهقت بفرح ، همّت أن تعود إلى البيت تستدفئ بحروفه ، لكن صوت أنبوبة الغاز الفارغة التى تتدحرج فى الصندوق قتلت فرحتها .

وقفت أمام طوابير الأنابيب المصفوفة مثل عساكر ، داهمها خاطر مريع ماذا لو سقطت شظية الآن وفجرتها ؟ استعجلت العامل ؛ ابتسم وهو يجعر بصوته :

- أنبوبة نظيفة كطلبك دائمًا .

فرّت من ابتسامته ، انتشرت غيمة سوداء ، توقفت عند

محل الكهرباء ، سلّمته خلّاط العصير المعطل وتسلمت منه المكواة التى أصلحها . اشترت دزينات من اللمبات ذات المائة شمعة والستين شمعة .

واصلت من « الدعية » إلى شارع القاهرة ثم اتخذت يمينها إلى شارع بيروت . دوى الرعد بوحشية ، تقاذفت إليها صور الحرب البشعة ، ضاعفت سرعتها ، ألجمت السيارة عند باب المطحنة ، أطلقت بوق السيارة ، أقبل العامل ، فتح الباب الخلفى ، وضع الكيس :

- كما تحبين نصف أشقر ، نصف محروق ، هيل كثير .

انتشر عطر البن ، تمادى يوقظ حنينها لدرجة الغليان ، تذكرته ذلك النهار وهى تحدق بفنجانه تداعبه بقراءة خطه ، استحثها :

- ماذا ترين ؟

- آدم يغص بتفاحة الجنة وينحدر مهزومًا إلى الأرض .

تتذكر كيف تحداها :

- لماذا لا يكون منتصرًا رغم الغصة وتكون الأرض جنته ؟

تاقت لجنائن صدره . بعثر المطر نشيده فوق سقف السيارة . ستعود إلى البيت ، تفتح رسالته ، تتذوق طعم شوقه ، تستحلب نشوة افتقدتها منذ غادرها آخر مرة . التفتت تطمئن

على الرسالة . صفعتها ورقة الطلبات التى لم تنته بعد . بقى الكثير .

اتجهت إلى الجمعية التعاونية ، تجولت بين الرفوف المزدحمة ، قابلت وجوها ، تعثرت بصناديق كرتونية مفرغة من البضائع للتو . أزحمت العربة بالأغراض ، فى طريقها إلى الكاشير وقعت عيناها على فترينة الألعاب ، خفق قلبها لمنظر الدمية ذات القبعة الحمراء ، تأملتها ، تحسرت ، يوم كانت طفلة حلمت بدمية كهذه لكن الحلم لم يتحقق .

اشترت الدمية ، دفعت الحساب ، اتجهت لباب الخروج ، فوجئت بالسماء تسكب دلاءها بعصبية . الريح قاسية ، رصيف الجمعية مخنوق بالأجساد التى تتقى السيل . الوقت ضيق ، لديها الكثير ، استعر الحقد فضفاضًا بداخلها . هذا يوم لا يصلح إلا للحب .

فضت زحام الناس ، هرولت تحت المطر والعامل يتبعها . رص الحاجيات ، انتظر بوقاحة ، نقدته البقشيش ، دلفت إلى السيارة وقد تبلل شعرها وتناثرت القطرات فوق وجهها كالدموع . ألقت نظرة على الرسائل ، عانقت خط يده . انفجرت بالبكاء .

واصلت السير إلى « مجمّع النقرة الشمالى » ، إلحاح ابنتها يزقزق حزينًا داخل أذنيها :

- بعد غد حصّة الألعاب . . . أريد . .

تجولت ، اختارت حذاء الرياضة ، فانيلا بيضاء ، شورت أخضر ، شريطة صفراء ، إشارات مخملية ، مضارب تنس . ثقلت الأكياس ، مرت تصافح الواجهات بسرعة . توقفت أمام قميص النوم البنفسجى ، ارتعشت ، تذكرت :

- هذا اللون يليق بك . ستبدين به كزهرة البنفسج .

يومها تدللت عليه :

- وأضع روجًا بنفسجيًا وأشكل بشعرى وردة بنفسجية فتكتب لى قصيدة !

صوته يلح : اشترى القميص .

طوته البائعة ، حضنته إلى صدرها ، خرجت تحلم به يأتى فى يوم ماطر ويتمرّغ فوق البنفسج . هتفت باسمة عشرات المرات وهى تقطع المسافة إلى سيارتها وتسكب جسدها غيمة باردة على المقعد . تلمست رسالته ، هاجمها الغضب ، ودت لو تنسف حياتها ، تبصق كل ظروفها ، تختار قلبها فقط تعيش به حرة ، تسافر ديار الحب مثل فراشة .

حطت عند مخبز « التنور » . شقت الرائحة عباب صدرها . كانت السماء قد فرغت إلا من رذاذ حنون يتساقط . تسلمت الأقراص ساخنة مصحوبة بابتسامة الخباز ولهجته المتعثرة :

- « محمّش زين ، سمسم وايد » .

عرجت على المكتبة . اختارت مجلاتها المفضلة ، اشترت كشاكيل مدرسية لابنتها ، أقلام رصاص ، ألوان شينية ودفتر رسائل ملون !

كان بخار الخبز الساخن قد شكل غلالات ضبابية فوق الزجاج ، عبقت السيارة برائحته الشهية . ذات مرة قالت له : رائحة جسدك تشبه رائحة الخبز . ضحك بأعلى صوته وقال : أخاف أن تأكليني .

لو جاء الآن لن تتوانى « تفرمشه » انتقامًا من غيابه . اهتاج شوقها ، لم تعد تواصل إكمال المهمات . بقى اللحم ، الخضار ، ومصبغة الثياب .

اندفعت إلى البيت ، أفرغت الأغراض ، ركضت إلى غرفتها تعانق رسالته ، فضت قماش الستارة ، فتحت النافذة ، هرولت الريح إليها تطاير أوراقها ومفارش الطاولات الرقيقة .

بحثت عن اللبلابة ، دفعت نظرتها إلى الأسفل ، رأتها متكومة كجثة . أحست الريح تفتح ثقوبًا بكل عظامها فتتكسر بداخلها الأغصان . انتفضت ، تهاوت إلى الأرض وأجهشت .

١٩٩٥

حلم غير قابل للكسر

ظلت رغبتى أن أدعوه ذات ليلة إلى جولة داخل السيارة . نهيم فى شوارع المدينة ، نحتسى قهوة طازجة . نلتهم دخان سجائرنا المختلفة . نستمع للأغنيات القديمة التى تعجبنا . نتسكع فى أزقة المواضيع . نفتح نوافذ أحزاننا وأفراحنا ، نتبادلها ونستريح .

رغبة محمومة لا تجرؤ أن تصل إليه ، كأشياء أخرى كثيرة تموج بخاطرى كلما التقيته . بضع شوق يسكننى ، يتنامى حين ألمحه ممتدًا بقامته أمامى ، أو جالسًا يحتسى قهوته ساهمًا فى خيالاته . . وكلمات تكاد حين يجالسنى للحظة ، أن تشق باب قلبى وتفر إليه كعصافير ممتلئة تهمس الشبع فى أذنيه . تلتصق بقلبه وتعترف بأنه أصبح أثيرًا لدى ، وأنه يستوطننى منذ شهور . ويحتكر ساعات ليلى ، أحلم به مُحطّمة بأحلامى كل الحواجز التى تفصلنى عنه حين ألتقيه .

لم أجرؤ أبدًا أن أدعوه ؛ خشية أن يصدمنى رفضه فيموت بداخلى أمل بدأ ينبت كعشب أخضر فى مساحات قلبى الجافة . لم

يخطر ببالى أبدًا ، أن الصدفة تكون قوسًا يزف ألوانه المفرحة إلىّ في تلك الليلة التى بادرنى فيها بذوق شديد أن يوصلنى إلى البيت .

لم أصدق حتى اللحظة التى أغلق فيها الباب بعد أن زففتُ نفسى إلى مقعد سيارته المجاور ، وحتى اللحظة التى استراح فيها خلف المقود . رحب بوجودى . صوته لا يخفى شعورًا بالارتياح . وأنا !! تنتفض عروقى . تكاد تنزف دمى أمامه . أشعر بجوع مفاجئ وكأن الفرح قد استنزف كل ما أكلته خلال شهور .

هو بقربى ؟ أو أنا التى بقربه ؟ لا يهم . مادامت الحياة أخيرًا تهدينى بعض حبوبها الغنيّة .

الفرح ينبش نفسه ويزهر حتى وجنتى فتدفآن . حتى عينى فتتدفق منهما ضحكات أطفال ترفعهم أراجيح الأعياد وتنزلق .

بحنان يضغط على دواسة البنزين ويمضى . وأنا ! أثرثر باعتذاراتى السخيفة أننى أزعجه . فيرجونى بلطف ألا أتصور ذلك . وأنه سعيد حقًّا أن أكون بجانبه .

تغمرنى رعشة ولذة . أتمنى لو تطول الطريق . تنعدم النهايات والحدود تترك لى زمنًا أحقق فيه رغبة أغذيها منذ فترة بالأمل خشية أن تكسل أو تصدأ .

هو صامت . الراديو أيضًا صامت . توقعته حال جلوسه يمد أصابعه يدس شريطًا ينثر رحيقًا « فيروزيا » . . قد تسطع أغنية تعبر كلماته ولو قليلاً عن مشاعرى القوية التى لا أدرى بالضبط متى فاضت أمطارها وتكاد تنذر بطوفان .

صامت !

يفتتنى الصمت . أطلق بضع كلمات يجيب عنها باقتضاب . أود لو تغلبنى شجاعتى فأطلب منه أن ينسى طريق البيت ويظل تائهًا معى فى الشوارع . نبحث عن شارع قديم تفوح منه عطور زمن ودعته ومازال لا يودعنى . لكنه يمضى فى الشوارع التى تخترق أضواؤها العتمة ، فتضىء داخل السيارة ، وقلبى يضىء . لم يكن يهمنى أن أتأمل أى شىء يتبعثر حولى ، ربما كتب ؟ أو أفكار غير مكتملة الولادة ؟ أو ألعاب أطفال منسية . . وربما إيشارب امرأة فيه رائحة عنقها أو صدرها . حتى خارج السيارة ! لم يهمّنى أن أراقب أى شىء ، لا الأشجار التى تنام واقفة يرعشها البرد . ولا السماء التى يتربع فيها قمر يختال بين عشيقاته النجوم . ولا البحر الذى تتكئ أمواجه على صدر الرمال . شىء واحد فقط كنت أدفع باهتمامى وتأملى نحوه : شىء يتمدد . . يتمدد . . وتفوح رائحته الشهية تدوخنى فيتسع

مدار الرغبة أن أقترب . ألامس الكف . أشدها إلى أبثها بنداى . ألصقها بصدرى . أتزود من دفئها لصقيع قادم . صامت !

ضباب صمته ينتشر . ينبت غابات شوك تتجدل أغصانها حولى ، أحس وخزها الأليم . أتمنى لو أقلعها شوكة شوكة حتى لو أدمت أصابعى كلها . وأقذفها إليه ، قد يتألم .. يصرخ .. يبحث عن مأوى لجراحه فلا يجد غير عمرى يرتمى عليه . لكنى لا أجرؤ لا شىء يشجعنى وهو رغم رقته ودفئه يبدو كتمثال من الحجر ، أخشى إذا اندفعت إليه أن يكسر صلبه رأسى وتفتت حجارته مشاعرى . آه .. لو يحس بألمى ! لو يقطفنى من شوكى ، لو يفهم كم اقتاتت رغبتى من ليالى أرقى وشوقى إليه بانتظار أن يتحقق حلمى . ونكون ذات يوم وحدنا ، وتكون كفه التى تلامس آلاف الأشياء لى وحدى أداعبها . ألحس تعبها . وأتركها حديقة مفروشة بالقرنفل . لماذا هو صامت ؟ لو أعرف بماذا يفكر ! ما الذى يشغله عنى وأنا المشغولة به ؟ لو أخترق المسافة إلى عقله ، إلى قلبه ، إلى عمق مشاعره ، فلربما ألقاه مثلى يصارع رغبته ويكبحها لأنه أيضًا يحسنى كما أحسه تمثالاً من الحجر يخشى الاقتراب منه . أقطع صمته . أهمس :

- تقود ببطء . أما أنا فسياقتى طائشة .

صوته الرقيق :

- لا أحب السرعة . ثم . . .

وأطلق ابتسامة تلألأت قبل أن يضيف :

- أريد أن أطيل الطريق وأنت معى .

مجاملة مهذبة تمنحنى الفرصة . تشرع أبواب الأمل كى أدعوه يواصل الطريق . يبحث عن بيت قديم لم تبق منه سوى شجرة وحيدة صامدة . نختبئ تحت سكونها . فأحتضن كفه بحرية ، أدفق عليها بعض حرارتى ، أبَث فى صمتها الحياة ، أبللها بدموع تشبه تلك التى نزفتها طفلة تنام وظل أمنيتها يغمرها أن تمتد كف أبيها إلى وجنتها تربت عليه بحنان ، وإلى شعرها تربطه بشريط الأعياد .

أستدير إليه كلى مشحونة بشجاعة مفاجئة . فى اللحظة ذاتها كان يمر كُم « دشداشته » ويسقط عينيه إلى ساعة يده فانكمشت عقارب شجاعتى المتحفزة . وبغباء ليس من صفاتى تصورته تذكر موعدًا آخر يهيئ نفسه ليعتذر لى . فبادرت ، ابتلعت شجاعتى ، وفرطت باللحظة .

صامت !

يقطع صمته بين لحظة وأخرى بكلمة . أو تعليق . لا شىء منه يرد روحى . لو كان يملك بعض إحساسى الكبير به لعرف كيف يبادر . ليس من رجلٍ لا يعرف أن أول لحظات الحب تبدأ بلمسة كف تعرش بعد ذلك عنبًا فوق الوجنات ، وكرزًا أحمر بين الشفاه . لو كان لديه بعض رغبتى لما ترك كفه يتجمد فوق المقود بينما دفء كفى بالانتظار .

مجنونة أنا ؟ أم ترانى أبنى أحلامًا فوق الرمال ؟ موجة واحدة تدفق بهدوء كفيلة أن تهدم أكبر القصور . علىّ أن أكون رحومة بقلبى ، بمشاعرى . بأحلامى .

طريق البيت تقترب . وأنا ! أتمنى لو منه أقترب . أفتت جليده أحطم أصنامه . أرتمى على كتفه . أشم عرق الشتاء يبلل عشب جسده . أجذب وجهه نحوى . وأفجر بركانى على شفتيه . لكننى جبانة لا أجرؤ . والخيبة بداخلى تكبر . تفرش ملاءتها السوداء فوق روحى . والحلم مثل مرآة يتكسر . لكننى رغم ذلك أقبض عليه كى لا يتبعثر . ربما يسطع أمل جديد . كلمة جديدة منه تلملم بقاياى . تنصرنى على ضعفى فأرتاح .

توقفت السيارة . حلمى لا يتوقف . ينطق به لسانى والخوف يملأنى أن يرفض دعوتى :

- تشرب معى فنجان قهوة ؟؟

تردد . طاف بوجهى حزن ربما لمحه فأشفق علىّ . ولبى الدعوة . تبددت غيومى السوداء . انفتح باب الأمل فى اللحظة التى ترجل وأغلق باب سيارته .

دافئ البيت كقلبى . والقهوة تأتى يتصاعد بخارها ، رائحتها التى تشبه رائحة حبيب يأتى متعبًا فيتسرب عرقه الصيفى إلى خلاياى يثير شهيتى لوصل حنون .

الرائحة الآن تفتح نافذة أعبر منها إلى كفه الذى أحلم به . لكنه يرتشف القهوة ولا يشعر بأحلامى . تأملت فنجانى . نظر مبتسمًا :

- هل تقرأين الفنجان .

اندفع حلمى وفرحى إليه :

- بل أقرأ الكف .

مد كفه . فى لحظة تحولت إلى كمان حزين . يدى المرتعشة شوقًا امتدت إلى الأوتار الرقيقة فيها . فاح لحن سماوى بمقدوره أن يرقصنى . يثيرنى لأفعل ما أشتهى . لكننى تأملت الكف . طويتها وهمست :

- ليس الآن .

غباء آخر أقهر به قلبى . وأنا مبعثرة الشعور ما بين الرغبة والامتناع . شعرت بالمكان رغم دفئه غير مناسب . أريد مكانًا آخر تفوح منه عطور تليق باللحظة . أريد عطر بحر ، بيت شعر ، شجرة « بمبر » ، تنور خمدت ناره ، أو عش عصفور مهجور . فللأحلام أمكنتها الخاصة التى تولد فيها كالأعراس .

لم ألمح فى وجهه أسفًا ولا خيبة ، وسؤاله البارد :

- لماذا ليس الآن ؟؟

هل يتغابى أم يستفزنى لأنطق ؟ هل أصدق أنه لم يجرب القراءة دون كلام أو أن امرأة لم تعشقه ذات يوم فتتحول طفلة ترضع حليب أمها الشهى ؟

حلمى انكسر . أدرك أننى سأكسره عشرات المرات قبل أن أجرؤ . ابتسم . شعرت ابتسامته ترتاح لضعفى . أو تشمت به . أو ربما تنتصر لخلاصه من مبادرة يخشى عواقبها .

استأذن بذوق شفاف . فابتلعت علقمى وأنا أودعه . وأشرع له الباب . كانت السماء متدثرة بالغيوم ، غاب وجه القمر وعشيقاته النجوم لم تبق سوى نجمة واحدة تضىء ، ولا تذوب فى السماء الباردة . وكأنها حلم غير قابل للكسر .

١٩٩٥

الحب فى اللحظات الأخيرة

جسده الذابل ، اصفرار وجهه ، ركود حركته ، أنفاسه المتلاحقة التى يستلها بمشقة ، كل شىء يوحِى أنه يعانى تعب اللحظات الأخيرة . لكنه السؤال المعتاد الذى لابدّ منه :

- كيف أنت اليوم ؟

تلجلجت الكلمات بين شفتيه ، بضعف أجاب :

- ليس كما تحبين .

دقائق قليلة قاومت فيها غُصّتى و حزنى ، شعرت أننى غير قادرة على البقاء أمام حالته المؤلمة ، استأذنت ، دنوت منه . كانت ذراعه المتورمة تسقط بلا حياة فوق ذراع الكرسى . لامست أطرافها داعبتها ولا أدرى كيف جرؤ لسانى وأطلق الكلمة :

- يدك باردة .

دحرج نظرة حانية إلى عينى . بتثاقل شديد حرك لسانه ، أوجعنى صوته المعبأ باليأس :

- الموت يا عزيزتى . يبدأ من الأطراف .

ماتت الكلمات فى حلقى ، لم أعرف كيف وماذا أقول ! حاولت وكأنى فراشة حائرة فى قلب زجاجة . رتقت انفعالى بكلمات متداخلة مشبوشة ضَلّت كل معانيها . وتفاديت النظر إلى عينيه ، لكن إحساسى لم يغفل نظرته المركزة على وجهى وكأنها ترجونى أن أبقى لبعض الوقت . سارعت أهرب خشية أن يدفق حزنى إلى عينى . لم أشأ أن أقهره بضعفى ودموعى فيشعر وكأننى أودعه للمرة الأخيرة .

رافقنى وجهه طوال النهار . حاولت أن أتهرب منه وأنا أجوب الساعات الطويلة . لكن الذكريات اصطادتنى وأزهرت أمامى تلك اللحظات الشقيّة الماضية فى خواصر الذاكرة .

تذكرت شكله القديم . القامة الممتدة بعنفوان ، الصدر العريض الذى اشتهيت ذات يوم أن أتدفأ بين عظامه ، الكف الرجولى الذى يصك على كفى مرحبًا فيفتح نوافذ رغبتى نحو شفتيه المبتسمتين أتمنى لو أقضمها بكل جوعى وأشرب حلوها المخزون .

السنوات تمضى ، ريحها ما بين الفصول تطرح الوجوه بالدرب . مصادفات تحمل الحكايا الصغيرة . الرعشات المؤقتة ، الأحلام البريئة التى تواريها دفاتر الذكريات المنسية فى الأركان الصامتة . وحده وجهه . لم يذب من ذاكرتى ، ظل

يناوشنى بين وقت وآخر فأخترع الأسباب لألتقيه وأهدى لكفى منه تلك اللمسة التى تفجر ضياء يشع فى مساحة قلبى ، وسؤال حائر يتقافز : هل يحس بمشاعرى ؟ هل تسرى رعشة كفى إليه تنبئه أن التى تسعى إليه إنما تأتى مدفوعة بذلك الشعور الجميل والحلم الأجمل ؟؟

فى كل مرة أزور مكتبه المكتظ بالزائرين والمراجعين ، أدخل وأجراس قلبى تقرع فرحًا ، يرحب بى ، يرشنى بكلمات الود والإعجاب ، لكنها لا تمنحنى الشعور بخصوصيتى ، كنت مجرد امرأة كسائر النساء العابرات ، ينتهى اللقاء ، يذوب فرحى كالملح ، أخرج ولا يبقى منى سوى رذاذ عطرى الذى تذيبه أنفاس الآخرين .

لم أستطع أن أنساه ، أى امرأة لا تقوى على نسيان الرجل الذى لا تحقق الوصل معه . يبقى فى الصميم تبقى حسرة الحرمان هائجة ومائجة لا تخلد إلى الراحة حتى وإن أرخت سدائل جفونها ، تظل ما بين الأمل وانحناءة الأيام وشحوب السنوات تحلم أن تحقق وعدًا ، تنتظر لحظة تعرى بلادتها ، تكسر حواجزها لتتوالد المحاولات ، لعل الجدار السميك ينهار ، لعل البحر يضيق ، يدفأ الرمل ، يصير فراشًا يحتويها هازجا بالندى .

لكن السنوات لا ترأف بالحلم ، تسرقه ثمرةً ثمرة ، لا تنتظر عسر الولادات المؤجلة ، زحفت إليه ، أضمرت بساتينه ، شربت رحيقها ، اقتاتت من ثمار جسده أشهاها . جرؤ المرض ، عصف بالعمر الشهى ، تقوست قامته قبل أن أكتوى بنارى المتوحشة عليها . هزل الوجه قبل أن أرش بدائع لهبى نجومًا عليه . تجعدت الكف قبل أن أعابثها فتدس أطرافها الثائرة فى تفاح جنتى .

سقط فى الوحدة العائمة ، غابت سنوات ائتلاقه الجميل ، تكوم مقعدًا على كرسيه البارد ، فاقدًا نصف الحياة ، وظل حبى مشرئبا بقامته والعمر إلى غروب .

يعرف الآن وأنا أحمل له زهورى أننى أجىء لا كما كنت تلك الغريبة عنه ، بل المرأة التى أحبت بصمت وانتظرت ولاحق الزمن حلمها حتى كبا ، فلم يتبق من شىء غير هذه الزيارات الأسبوعية التى توجع القلب . كان لابد أن تعرف ، وأشرق ذلك النهار المناسب الذى خلعتُ فيه بردة صمتى .

كان يجلس وحيدًا ، يقلب الصحيفة اليومية ، دخلت فألقى بها جانبًا ، وقف ، متثاقلاً ليستقبلنى . لم يكن المرض قد تمكن منه بعد . أرحت زهورى على الطاولة القريبة . اقتربت منه ، مد

كفه ، تجاهلتها . اندفعتُ إلى وجنته ألصقت عليها شفتى ، ارتعش وكأنه يلامس امرأة لأول مرة ، ابتعدت ، حدقت بوجهه ، أستشف تأثير مبادرتى ، رأيت وجهه عارمًا بالفرح ، تشجعت ، عدت للوجنة الأخرى أكثر حرارة .

قبل أن أبتعد شدتنى ذراعاه ، لم أتردد ، ارتميت بينهما فى لحظة أشبه بالغيبوبة . زرعت لون شفتى البرتقالى على شفتيه ، حملتها توقى العنيف وصفو شعورى و كأننى فقط فى تلك اللحظة قد حررتها من أغلال الصمت . هبط إلى كرسيه واهنًا كأنه آدم يهبط من جنة لا تتسع لسعادته .

جلست . فتحت له دفاتر الحب المرشوشة يالصبر وكأن البرق شطر الغيمة فانهلت بوحًا خصبًا .

لعثمته المفاجأة ، وبعد أن استراح تهادى إلىَّ صوته حزينًا لا يخلو من كبرياء :

- جئت متأخرة . لقد عافنى الزمن .

قنوط بعثر محاولتى أن أزف لقلبه أملاً وانتعاشًا . شعر وكأنه أحبط المحاولة . أهدانى ابتسامة عذبة . أشار لمجموعة كتب متراصة . حدد لون أحدها :

- ناولينى إياه .

فتحه ، استل من بين الطيات الصفراء صورة ، قدمها لى ، تأملتها :

- امرأة جميلة .

استراح وجهه :

- وجدتها اليوم صدفة فى الكتاب .

- حب قديم ؟؟

- أعطيته أبهج أيام الشباب . ماذا أعطى اليوم ؟

زم عينيه كَمَنْ يحبس حسرة ، أشفقت عليه ، سحبت كفه ، تشممت رائحتها الحميمة ، مسحت وجهى كله عليها . همست :

- يكفى أن أراك وقد عرفت مخبوء قلبى الذى صبر .

ماجت سعادة طفيفة على وجهه . غازلها عرقٌ خفيف ، تفصّد سريعًا ، ضحك قبل أن يقول :

- يا لغرابة الزمن !

- تحقد عليه ؟

تألم وجهه . عصر كلماته :

- هل يفيد النهر الجاف هطول المطر ؟

أصررت أن أبذر شيئا :

- على الأقل يبلل الأحجار الصغيرة فتنبت عليها الأعشاب .

ذرف عتابه الجليل محدقًا بوجهى :

- لماذا جئت متأخرة ؟

قفزت إليه . تكومت بين ركبتيه مثل قطة تتمسح بسيدها ، أرخيت رأسى على ركبتيه ، تسربت أصابعه إلى شعرى ، ثم إلى وجنتى ، هرسها . تناثرت حزمة ضوء إلى عمقى .

خرجت ذلك النهار غير نادمة أننى صارحته . تصورت أن شمسًا جديدة ستبزغ فى مشاتل روحه ، وأن حنانى سيتمدد عريشة خضراء فى شرايينه ، تشحنه بقوة يتحدى فيها المرض ، يعاند الزمن ، يحلم مثلى .

لكن الزمن كان أقسى . ظل يتآكله فأراه يذوب أمامى فى كل مرة أكثر من المرات السابقة .

يعرف الآن حتى وهو يصارع ثقل لسانه ويعلن أمامى أن الموت يبدأ من الأطراف ، يعرف أننى أجىء امرأة غير كل النساء لا يعرف سرّى أحد سواه . أحمل له زهورى التى تؤكد له أن الحب سيبقى حتى اللحظات الأخيرة .

١٩٩٦

الليلة ترقص شهرزاد

فى لحظة متلألئة . انفصلت عن الواقع . أغلقت أبواب النهار . أخرست ضوضاءه التى تمتص حياتى فى دوامة لا تنتهى . تحولت نجمة ترتدى ثوبها الشفاف . وتلبى دعوة القمر آملة أن تسقط فى حضنه وترتوى .

جلستُ على الأريكة الوحيدة . احتضنت بحنان شديد جسدى الذى غسل ملحه وتعطر بالبنفسج . استللتُ شهيقًا عميقًا شعرته يرتد إلى صدرى حاملاً شيئًا كالمخدر سرى إلى أعضائى سريان ثعبان ناعم . استسلمتُ للدغدغة المتوحشة . دخلت عالمًا مؤنسًا زاخرًا بالبدائع والجمال .

بدأت عيناى تجولان فى المكان المدهش . عالم كما الحلم يحولنى فراشة تطير من بقعة لأخرى غير آبهة أن تحرقها بقع الضوء المتناثرة . تحط على غصن . تلثم جدارًا . وتتمرغ فى كف عصفور . ثم تعود إلى الأريكة امرأة ملغومة بالسعادة والهفة .

موسيقى نادرة تنبعث من الجدران المحيطة . تحرك الأشياء

الصغيرة المتدلية من السقف : حبال قديمة . سراج مطرز بالألوان . « زبيل » قديم تطل من عنقه أعواد ريش النعام الزاهية . قواقع مشكوكة بخيوط الشبك ، تنتهى بنجم بحر يفرز عرقه القديم . كل شيء يتحرك راقصًا . فتدق فى جسدى طبول غجرية مجنونة . أصير فارسة يصهل بها الجواد السحرى يخترق الجبال . يشق الغيم . ويكتسح الريح .

غادرت الأريكة . بدأت أغزو المكان بخطى وئيدة . أندس فى كل لوحة تصافح عينى . هى ذى الصحراء برمالها الذهبية المتموجة تدعونى : « هيا تعفّرى بالرمل الساخن » . وهذا البحر يصرخ بى : « قدمى جسدك هبة للمالح العاشق » . وهذا الشروق يهتف بحنان : « تثاءبى . وانطلقى نحو الحياة » . وهنا الغروب يهدهد تعبى : « هيا غوصى فى قرص الشمس الذى تحبين وداعه . ونامى فى قلبه الأحمر » . وهناك أبواب قديمة تتوسلنى : « انفضى عنى الغبار . اطرقينى . سوف تستيقظ لأجلك سلال النوير وترشك بالعبير » .

تقدمت نحو أحد الأبواب . حركت مزلاجه . دفعته فنشج صريرًا حزينًا . وأمامى سطع وجه الماضى البعيد . ها هو الدهليز القديم . خرابيش طفولتى على جدرانه . رءوس طيور

وأجنحة حمام وأسماء رفيقات وارتهم الذاكرة . الدكة الطينية صامدة رغم تآكل حواشيها . تناثرت عليها أوراق شجر شائخة وخرطوم « قدو » ممزق . فى الطرف الآخر أشياء مكومة . أخشاب . بقايا حصر مهترئة . « برمة » مكسورة تصلح عشا لطائر تائه . صراصير ناشفة وخنافس داست عليها خطوتى فلم تفرز عصارة ولم تئن .

دلفت إلى الحوش . استيقظ الأمس . أسمع شخير نيام . هديل حمام . أشم رائحة مواقد . يتلوى « الطرثوث » فوق جمرها وينضج « الفندال » . ألمح دلة قهوة تراكم عليها الصدأ الأخضر وتواريخ الأيدى التى حملتها وعبأت الفناجين . فى الزاوية « صفرية » محشوة بقراطيس وقش تفوح منها روائح بيض لم يفقس . جماجم قطط ميتة تناثرت ذيولها قرب « الرحاة » التى اهترأت ذراعها الخشبية . وانطرحت بجانبها « ركوك » التمر وقد جف الدبس بين أعوادها والتصقت عليه أجنحة ذباب .

أبواب الحجرات مشرعة بلا أقفال . اقتربت . دخلت إحداها . الأرض خالية إلا من تراب وفضلات فئران . الجدران مقشورة وشاحبة ، مساميرها الصدئة ما تزال عالقة بها . تراءت

لى الصورة القديمة : ألمح « وزار » جدى . فتلحفنى رائحة ليل . وأبوام . و « فطام » . أستل الإزار . أنفض غباره . أدثر به عنقى . وعيناى تلمحان عباءة جدتى وقد تآكلت جوانبها . وقرضت أذيالها الفئران . أسحبها فأشم رائحة سدرة . بخور . زعفران . ألتفع بها . أركض إلى الحوش ثانية فتعانق عيناى النخلة الشائبة . أهز جذعها المتخشب آملة أن يساقط الرطب شهيًا . أشد سعفة متدلية . أتأبطها . تفوح رائحة « عذق » ودع صدر أمه . وتربع فى صحن أمامى . أهمس حالمة : « غدا يصير رطبا فلا أترك منه غير النواة » .

أنزع نفسى من البيت . والحجرات تشهق بالدمع . تصرخ ، تستعطفنى : ارجعى . اسكنينى . رشينى بماء الغدير . أحس الصدى يلاحقنى كنعيق بوم وثرثرة خفاش . أرتجف . أفر حاضنة ذكرياتى كى لا تسقط منى . أصفق الباب ينوح وهو يودعنى ينفخ نحوى صلوات ، ودعوات . الشارع الطينى يحتوينى . أقفز فوق برك الماء الراكدة ، أقطع المسافات ، أرتمى فوق كومة تراب فتجرح جبهتى قطعة حديد منسية . أصرخ . أصحو .

مازلتُ فوق الأريكة . ألهث بعد الرحلة الأسطورية .

ما تزال الموسيقى الناعمة تقيم أعراسها فى المكان وأنا أنتظر .
كم من الوقت مضى وهو يتركنى بين الدفء والرجاء ؟ لكنها المرة الأولى التى لا أستشعر فيها للوحدة طعمًا مرًا . كل شيء حولى ينبض بالحياة . يغنى . يرتل . يهمس . يشهق ويرقص .
يستفزنى لأنتصب وسط المكان . تحت الضوء المنسدل على مشهد البحر وأتعرى من ثيابى . أرقص عارية كما ولدتنى أمى إلا من « الشماغ » الذى دثر به عنقى قبل أن يخرج ويتركنى وحيدة .

صوته يفاجئ أمنيتى . تموت الرقصة . يبتسم . ينحنى إلى الطاولة الصغيرة . يضع كأس « شربت البيذان » . يتناثر شعره الناعم أمامى . أتمنى لو أدس أصابعى بهذا الليل المتشرد وأعابثه حتى يسقط الرأس كله على صدرى وينام .

صوته يقتحمنى :

- تعمدت أن أتركك فى المكان لتتأملى . أعرفك تعشقين الأجواء القديمة . كأنك تعيشين ليلة من ليالى ألف ليلة وليلة .

أغمضت عينى . تخيلتنى شهرزاد الجميلة . أحتل المكان .
أتمدد فيه أدخل جوف البحر . أسمع بقبقة الموج وهمس الهوامير . غناء بحارة طروب . وصوت شهريار بدفء يطلب

الحكاية . سيفه بكفه منتظرًا بزوغ الفجر ليهوى به على عنقى .
تصرخ بى الحياة :

- ارفضى ذل الرجل . لا تموتى .

أفزع . أفتح عينى . أفرح إذ أراه أمامى وديعًا بلا سيف . السيجارة تحترق بين شفتيه تكاد تكويهما . أمد أصابعى أنقذ شفتيه . ينبع ألف شوق من عينيه . والغجرية بداخلى تستغيث : حرك السكون . أسقط الحجر فى البئر . ازعب الماء . أفرغ الدلو الملآن يتفجر نهر تسبح فيه نساء القارات السبع .

شهريار نار تبتلع الحريق ، وشهرزاد نار يتلوى فيها اللهب . فمن يطفئ النار ؟

ألوان الفجر . الغابات المطرزة بألوان الجنة . البحر الرصاصى . الرمل الذهبى . ألوان العلب المتناثرة بأنواعها . مائية . زيتية . جواش . بعضها شرب دموع الماء . وجف . أخيرًا . صار يملك ألوانًا حقيقية . بالأمس البعيد كان طفلاً يشد على فحمته السوداء . يرسم على جدار بيتهم القديم شجرة . فأكتب بفحمتى عليها :

« الشجرة بيتى »

يرسم وردة . فأكتب على رأسها :

« الوردة عطرى »

يرسم دلة وفناجين . فأكتب فى حلق الفنجان :

« هذه قهوتى » .

ذات يوم فاجأنى . سكب القهوة على فستانى الوردى الجديد . بكيت . مسح دموعى متألمًا معتذرًا .

- أريد أن تكرهى القهوة . إنها مشروب الكبار .

أيقظنى من خيالاتى الماضية فى العمق . قدم فنجان قهوة ساخن :

- معشوقتك السمراء . كم وددت لو كرهتيها .

رائحة البن . هياج الموسيقى . لا شىء يحركه . لا يصرخ فيه شىء كما يصرخ بى . لا يشحن بالجنون . أريد أن أرقص . عيناى قالت . حركة ذراعى أوحت . شفتاى الناشفتان اللتان لم يمسهما الندى منذ سنوات رجفت . قلبى المصاب بالبلادة نبض . لكنه لا يفهم لغتى الصامتة . هل أزعق ملء صوتى :

« تحرك يا شهريار و ادع شهرزاد للرقص ؟؟ »

بدلال أطفال جميل . يطلب أن أقص له حكايات زمنى الفائت . بعناد أرفض . ذلك الدوى بداخلى يهدد ويبتلع الخيبة . نحن وحيدان . عالمنا القديم برائحته وأشيائه الجميلة

منثور حولنا فوق الجدران . على الأرض . على الطاولات التى لا تتشابه . والموسيقى تبعث الحرارة فى كل شىء إلا هو ! صياد طويل البال . وأنا السمكة بانتظار الشبكة تلفنى خيوطها . أو سنارة تنغرز فى لحمى وتخرجنى حية . أريد أن أجرب الحياة . أريد الليلة أن أرقص ثم لا يهم لو أموت . يدخل الأصدقاء . تطفأ الرغبة . أخرج من حلمى . ينقذنى حضورهم من السعير بداخلى .

تبدأ الحوارات باردة ثم تسخن . يسخن عالمى الصاخب ثانية ولا يهدأ . الشبكة تتدلى أمامى . السمكة تتأوه بداخلها . عذق ملىء بالبلح يتغنج فى طبق خشبى يغرينى أن أتحول فأرة وأقرضه . هو أمامى يقدم أكواب الحليب المزين بالفستق . تتناوله الأيدى تريحه فوق الطاولة . أنا بلهفة أعبه ولا أرتوى . تعترينى برودة . من يطفئ البرد ؟؟

شهريار يغيب للمرة الثالثة . الرابعة . ماذا سيحمل هذه المرة ؟ يدخل . كفاه مليئتان بأوراق مشموم مقطوف للتو . وزعها بين الحضور . خصنى بالمزيد . أين أزرع هذا الفواح ؟ لم أخجل أن أدس كفى إلى صدرى . أزرعه ناحية القلب . أنساه فى الأمان حتى لحظة الانصراف .

أقطع الطريق الليلى . موسيقاه تسكنني . الرغبة أن أراقص أى شيء حتى لو كان الهواء تستبد بى . أصل البيت . يستقبلنى سكون النائمين . أتحرر من الحذاء . من الأساور . الخواتم . وحين شددت حمالة الصدر تساقط المشموم رطبًا فوق السجادة . انحنيت . جمعته بحنان . سحبت الشماغ من حول عنقي . فركته بالمشموم حتى تعطر . ارتديت قميص نومى الشفاف دسست الشريط الذى أهداه لى فى ثغر آلة التسجيل . انطلقت الموسيقى . صراخ . ريح . زمجرة موج . تأوهات عذارى . واشتعلت شهرزاد . أمسكت بالشماغ . فردته أمامى صار شهريار . صارت له ذراعان . عنق . وجه . وابتسامة . دعوته للرقص . حضن كتفى . حضنت كتفه . شددته إلى صدرى . شدنى إلى صدره . أرحت خدى على خده . سرى الدفء رقراقًا . قرب شفتيه المبللتين بالوله من شحمة أذنى . لعقها . همس :

- آه يا شهرزاد . لو أسمع حكاية !

أبعدت وجهى . حدقت فى عينيه اللامعتين . ألسنة النار تشتعل ضغطت على شفتيه بإصبع كالجمرة . همست :

- أيها الأهبل . الليلة تموت كل الحكايات . شهرزاد الليلة تريد أن ترقص .

يحدث كل ليلة

ظل الذى يحدث كل ليلة يثقل على صدرى ، يعكر حياتى ، قلت لنفسى : لا بأس أن يشاركنى أحد بهذا الحمل . ولربما وجدت له حلاً . ترددت كثيرًا لكننى جرؤت أخيرًا حين التقيت بمجموعة من زملاء العمل فى المقهى البحرى نحتسى الشاى ، نشرب « الأرجيلة » .

كنت كعادتى منذ أن بدأ يحدث لى ما يحدث كثير السهوم ، معتمرًا كآبتى أينما ذهبت . كانت فرصتى حين علّق أحدهم :

- أنت تغيرت . لم تعد ذلك الضاحك المتجلّى !!

تنحنحت ، سحبت نفسًا من الدخان . وأطلقت آهًا طويلة قبل أن أقول :

- والله « يا جماعة الخير » عندى مشكلة تنغص علىّ عيشى .

تبارت الأصوات بين اندهاش وفضول ومشاعر خوف : خير إن شاء الله ، و : يا أخى فضفض عن صدرك . و : معقول تكون فى مشكلة ولا نساعدك ؟ ها . تفضل قُل .

أسرنى اهتمامهم . حكيت لهم القصة . انفلتوا جميعهم بالضحك حتى كاد أحدهم يشرق بالشاى ، وارتج آخر بكرسيه . أوشك أن يقع لولا أن تداركته يد الجالس على يمينه . بداخلى شعرت بالندم . فقد اشتممت رائحة استهزاء وشك فى قُواى العقلية . ها قد صرت أضحوكة لهم . لمحوا انقباضى . تراشقوا النظرات لبعضهم كمن يلومون أنفسهم . قلت :

- كان لى الحق أن أتردد ولا أطلعكم على سرى . لكن ! ها قد غلطت .

انهالت اعتذاراتهم :

- يا أخى الحكاية مضحكة . لكن هذا لا يعنى أننا لا نأسى لأجلك ونشاطرك همّك .

قال آخر :

- على كل حال . لدى حل لمشكلتك . حتى تنام نومة عميقة فلا تشعر بأحلامك .

- تفضل . أتحفنى بما لديك .

اعتدل . مجّ نفسًا . شفط جرعة من الشاى :

- شوف . افتح أنبوبة الغاز واستنشق الرائحة . تدوخ وتنام كالمسطول .

عندما لمح استيائى من اقتراحه الشرير أبدى جديّة شديدة . وأكمل :

- صدقنى . هذا ما فعلته خادمة فلبينيّة بأطفال مخدوميها . شياطين يتعبون أمهم وقت النوم . وحين سلمتها مسئوليتهم لتخرج مع أبيهم للسهر . ضاقت بهم الخادمة . وأخذت تنشّقهم الرائحة . الأم لاحظت انضباط نومهم فى ساعة معيّنة . شكّت فى الأمر . لبدت ذات ليلة وفاجأت الخادمة فى المطبخ تمارس فعلتها الشنيعة على الأطفال .

فجعتنى الحكاية . وحين لمح استغرابى أضاف لمعلوماتى - التى رآها ضحلة - حكايات أخرى اقشعر لها بدنى . وحزنت على أطفالنا المتوّهين بأيدى الخدم . لكنى رفضت الفكرة ! ما يدرينى لو أننى استنشقت أكثر من حاجتى وفقدت حياتى ؟

استمعت لكثير من الاقتراحات التى تحاذفت . بعضها جربته لمعقوليته . بينما أهملت مجرد التفكير بالبعض الآخر . أكد لى أحدهم أن بعض أنواع الوسائد غير مريحة وسادة القطن مثلاً تتلبّد مع الرطوبة ، تصير تحت الرأس كالأرض الوعرة . وسادة الريش تسبب الحساسية . امتدح وسادة الديباج . جربتها . لكن

الحال ظلت كما هى . فقررت أن أستغنى عن الوسائد . ولم أنج مع ذلك مما يحدث .

أشار علىّ أحدهم بحبة مهدئ . بدأت بواحدة . تطور الأمر لاثنتين . وحين تعدّت الحاجة لثلاث وأربع . توقفت خشية أن ينتهى بى الأمر إلى الإدمان ، خاصة وأنها لم تمنع الذى يحدث .

اقترح آخر : عليك بالقراءة إنها تمتعك وفى نفس الوقت مثيرة للنعاس .

قلت :

- القراءة هوايتى المحببة . أنا أقرض الكتب مثل الفأر .

وذكرت لهم ألوان الكتب التى أقرأها . صرخ أحدهم وكأنه وقع على حل للّغز العجيب :

- تلك هى مصيبتك . مادمت تقرأ هذه الكتب . فما تحمله من أفكار تشوش حياتك وتفسد راحتك . ابحث عن كتب أكثر متعة .

قلت أجرب . كومت العديد من القصص العاطفية الساذجة . كتب المذكرات . قرأت مذكرات الراقصات فأشفقت عليهن وحقدت على بعضهن . قرأت مذكرات الفنانين الكبار . أعجبتنى حياة ليلى مراد وفريد الأطرش وعبد الوهاب .

تراكمت لدى كتب عجيبة وغريبة مثل كتاب « نكت من تحت الدست » و « كيف تصبح مليونيرًا » و « كيف تروّض زوجتك » و . . . كلها قرأتها . ومع ذلك ظل الذى يحدث . فعدت لكتبى الأساسية ذات الأفكار التى لا تعجب زميلى .

لجأت لاقتراح تبرع به أحد النّهمين :

- « طيعنى » املأ بطنك بأكلة دسمة . أتبها بثلاثة أكواب من اللبن المخيض ، ستنام كالقتيل .

النتيجة كانت بائسة. حين اتصل بى مستفسرًا عن نتائج وصفته . لعنته مؤكدًا أنها قلبت كيان أمعائى ونقلتنى إلى المستشفى. أحسسته من وراء الهاتف يلوى شفته هازئًا . متهمًا إياى بالجنون .

من حيث الجنون ، لست مجنونًا بشهادة أكثر من طبيب متخصّص . كلهم أكدوا سلامتى ، أجمعوا أن لا شىء سينقذنى من هذه الحالة إلاّ الزواج !

آخ ! المرأة ! وما أدراك ما المرأة ! هلعت من الفكرة . أى فائدة يتصور الأطباء أننى سأجنيها من الزواج ؟ وهلْ حقًا سيكون منقذى من الذى يحدث ؟

أنا شخصيًا لا أحبذ الزواج . أصدقائى ، وبعض أقاربى

جعلونى أكره هذه المؤسسة ؛ فكلما اقتربت من بيوتهم واكتشفت مصائبهم حمدت الله أننى - العاقل الوحيد بينهم - هل أنا أهبل لأقبل أن تأتى امراة وتتحكم بمصيرى ! تفرض علىّ شكل ملابسى . وطريقة نومى « كى لا أزعجها بشخيرى » . وتلاحقنى بتنبيهاتها العديدة وتحدد لى مواعيد عودتى ، تتدخل فى اختيار أصدقائى . وقد تسد الباب فى وجه من لا يعجبها منهم . ربما تفرض علىّ حتى نوع السجائر التى أدخنها .

وأنا لا أحتمل أن تصرخ فى وجهى كل مرة لتذكرنى بخلع حذائى عند عتبة الباب حتى لا ألوث السجادة « رغم أننى أنا الذى سأشترى السجاجيد وكل أثاث البيت » .

لا !

البعد عن النساء غنيمة . ما لى أنا وثرثرتهن . ودموعهن التمساحية ؟ حتى حنانهن أشك أنه صادق . إنه مجرد طعم ليقبل الرجل بكل الشروط ثم بعد أن يقع فى الفخ تدوس على عواطفه . وأحاسيسه . لذا استبعدت الفكرة من أساسها .

فكرت :

إن كان ما يحدث مجرد حلمٍ ! فلابد أن يكون له تفسير . وبدأ هم جديد . تنقلت بين المكتبات باحثًا عن كتب تفاسير

الأحلام . وحين لم أجد لحلمى أى تفسير - ربما لغرابته - أحرقت كل الكتب التى أحرقتُ بها أعصابى .

قالت لى إحدى الزميلات فى العمل - وقد سرب لها أحدهم سرّى - إن حالتى هذه سببها « الكبت الجنسى » . حقدت عليها . ما أوقح النساء !

كيف لم يجرؤ رجل أن يقول هذا وجرؤت هى ! هل تقصد أن تلفت نظرى لأتزوجها ؟ لم أرد عليها . فأنا لا أعانى مما تتصوره . صحيح أننى أعيش فى مجتمع مكبوت ! لكن هناك وسائل للراحة يمارسها العزاب أمثالى .

عاتبت الزميل الذى أفشى سرّى ؛ اعتذر وقال :

- لا تستهزئ برأيها . ربما لديك « عقدة جنسية » ونصحنى أن أعود بذاكرتى إلى سنوات عمرى الأولى ، وأيام الشباب .

دخلت متاهةً أخرى . أخذت أقضى الساعات راجعًا بذاكرتى إلى الطفولة . تذكرت أننا صبيان الحى مارسنا أنواعًا من الشقاوات . لكننى لا أذكر أن أحدًا جرح براءتى حتى روادنى ذات يوم أحد الصبيان الملاعين .

يومها حصرنى تحت « عريش بيتهم » ليرغمنى على مشاهدته مع عنزتهم الصغيرة محاولاً استثارة حواسى لأرضخ

له . لكن العذاب الذى عانته العنزة صرفنى عن كل شىء . تقيأت . فررت لأمى . فتنته لها . وبعد أيام عرفت أن أباه كواه فى عورته ليؤدبه .

تدرجت بالتذكر لأيام الصبا والشباب الغض . فلم ينتصب أمامى إلاّ وجه وضحة الطيب البرىء الذى كنت ألمحه من شق النافذة . وأحلم به طوال الليل حتى تزوجت فشعرت أن حلمى انكسر . ورفضت البحث عن حلم جديد .

ما عدا تلك الذكرى لم تكن لدى تجارب عملية . كانت شهوتى العارمة للقراءة تحمينى من خدش الحلم بالاقتراب منه . اختصرت علاقتى ببعض الشباب عشاق القراءة مثلى . بعضهم كان يسافر ويأتى بالكتب الجديدة والغريبة . فنقرأ ، نتناقش ، نبحث عن أى شىء يضيف لعقولنا . تشكلت بعد ذلك مجموعتنا التى انتمت لفكر واحد .

هذا الارتداد للزمن الماضى أكد أن لا شىء فى حياتى يجعلنى أخجل منه . وأننى لم آتِ فعلاً فاحشًا أو مخالفًا للقانون أستحق هذا العقاب الذى يحدث .

ذات ليلة . كنت فى ضيافة صديق . ضمت الجلسة مجموعة غير متناسقة من الرجال والنساء . فى تلك الليلة لفتت

نظرى امرأة - رغم سمنتها وقصر شعرها - كانت تقرأ طالع إحداهن فى فنجان القهوة . لأمر لا يعدو كونه « تسلية نسائية ».

لكن اندهاش التى تسمع وترديدها كلمة « صَخ » جعلنى أندفع للمرأة . أقدم لها فنجانى بعد أن قلبته وجف قلبه . ضحكت . لم تتأخر أن تسخر منى :

- مثقف مثلك . يؤمن بالفنجان ؟

دافعت عن نفسى :

- أبدًا . مجرد فضول لأكتشف قدراتك .

امتعضت . فرشوتها بابتسامة . تأملت فنجانى . تغيرت سحنتها . نظرت إلىّ نافرة متعوّذة :

- أنت مسكون .

بدهشة لا تتناسب وثقافتى :

- مسكون بماذا ؟؟

بحلقت بوجهى فغابت جاذبيها :

- بالشياطين .

هزئت بسرّى . لكن لم يمنعنى أن أسألها لأشعرها بأهميتها :

- وكيف أتخلص من شياطينى إن شاء الله ؟

قالت بثقة من يملك الحل :

- غيّر سكنك .

عقدت ما بين حاجبىّ استياءً . أكملت :

- أدواتك . أثاثك . وإن استطعت غيّر بعض أفكارك .

عدت إلى بيتى . تجولت فيه . بحثت عمّا يوحى بأنه المسبب لما يحدث . هل هى الفوضى ؟ هل هو التراب المتراكم فوق الخزائن والرفوف ؟ هل هو الأثاث القديم الذى اشتريته بسعر معقول من سوق « بين المقبرتين » ؟

الغريب أن كلامها الذى سخرت منه . أقلقنى . لعنتها . ولعنت الفنجان . ويومًا بعد يوم سيطرت علىّ فكرة التغيير . هربت لسكن آخر دون أن أحمل شيئًا من أغراضى . لكننى لم أستطع إلا أن أحمل كتبى وأفكارى معى .

حين استلقيت على فراشى الجديد فى الليلة الأولى . قهقهت سعيدًا على اعتبار أن تلك الكائنات لن تعرف الصعود إلى الطابق الخامس - تعمدت اختيار دورٍ علوىّ متوهمًا أنه سيحمينى - لكن فرحى خاب . حدث الذى يحدث كل ليلة . مما جعلنى أستعيد ما قالته المرأة بأننى مسكون بالشياطين .

قررت الذهاب إليها - وأنا آسف لأجل نفسى التى وصل بها الأمر لهذا الحد .

طرقت بابها فى ظهيرة حارة رغم تنبيه الصديق الذى أعطانى عنوانها :

« يا رجل هذه امرأة سخيفة . يتسلى الناس بهبلها » .

حين فتحت لى الباب ابتسمت بمكر . ربما تصورتنى أرغبها لنفسى . مشت تسبقنى بخطوتها . كانت خفيفة الحركة رغم سمنتها . دققت بتفاصيلها . نفرتُ حين تخيّلتنى أمارس الحب مع امرأة تشبه « السرير الهزّاز » .

غابت لحظات . عادت تحمل القهوة . استفسرت عن حالى وهى تصبها وبخارها اللذيذ يتسرّب لحلقى . أخبرتها أننى سمعت نصيحتها وغيرت سكنى لكن ما يحدث لى مستمر .

ضربتْ على صدرها برفق - كفها صغيرة وأصابعها قصيرة :

- علاجك عندى . انتظر .

عادت تحمل بيدها زجاجة مملوءة بسائل أصفر . نصحتنى :

- قبل أن تنام . رشه على فراشك . سيطرد شياطينك .

- هل تمارسين السحر أيضًا ؟

تدلّعت :

- احسبها كما تشاء .

وأنا أهُمُّ أن أخرج التصقت بى متودّدة . ارتعبت . تخلصت بلباقة . أوحيت لها بوعدٍ كاذب ويدى تشد على الزجاجة :

- إذا نجح علاجك .

فررت تلاحقنى ابتسامتها الآملة .

رغم عدم اقتناعى بهذه التُرهات . إلا أننى فعلت ما أمرتنى به فلم تنجح التجربة بقدر ما أثارت الرائحة قرفى وحكاك جلدى .

عدت إليها . أعلنت فشل دوائها . اغتاظت وكأننى طعنتها بقدراتها . طردتنى صفقت الباب بوجهى ولسانها يرعد :

- يا ابن الشيطان !

احترت بأمرى . ضاقت علىّ حياتى ، الذى يحدث لا يتوقف . فقررت ألا وسيلة للهرب منه إلا بمقاطعة النوم مادامت تلك الكائنات تستغل نومى . احتسيت عشرة أكواب من الشاى والقهوة . صعّدت صوت الراديو . تركت النور مضاءً فوجئت بضوء النهار يوقظنى . لقد نمت وحدث الذى يحدث كل ليلة .

لاحظ زملائى اضطرابى واعتلال صحتى . بعضهم حاول استغلال الموقف :

- يا أخى أنت كثير المناكفة . تزعج مرءوسيك . تعارضهم . وتنقّب عن أخطائهم .

نفثت غضبى :

- هل تريدنى أن أوافقهم على ما يفعلون . ويطلبون ؟؟

أرعش أصابع كفه فى وجهى :

- يا رجل هكذا تسير الأمور فى كل مؤسسات الدولة . هل تريد أن تصلح العالم ؟؟

بكبرياء أجبته :

- إن كنت لا أستطيع إصلاح العالم . فعلى الأقل أحافظ على صلاح نفسى .

هزئ :

- لنر إن كنت ستصمد .

تحديته :

- سترى . المهم أن أنام مرتاح الضمير .

شمت بى :

- وهل أنت قادر أن تنام مرتاح الجسد حتى تفكر بضميرك ؟ساير الأوضاع ترتاح !

لم أجد الراحة أبدًا . فى النهار مضايقات . محاولات لخنق

عنقى فى ذات الزجاجة التى اختنقت بها أعناق غيرى من الضعفاء . وفى الليل يحدث لى ما يحدث . وإن كانت وسائلى فى مقاومة أعداء النهار تنجح إلى حد ما ، فإن كل وسائلى التى جربتها لمحاربة كائنات الليل باءت بالفشل .

من أين تأتى ؟ لم تختارنى ؟ وإلى متى ستستمر ؟ ما أكاد أدخل دهليز النوم حتى ألمحها . تزحف نحوى . ثم تعجل بخطواتها . وطيرانها . « بق . نمل . عناكب . صراصير . شرانق . سحالى . ديدان » . وأشكال أخرى غريبة لا أعرف أنواعها . ولا أضبط ألوانها . تفترس جسدى أكوامًا فوقها أكوام . تندس فى أضيق الثنايا . فتحات أذنى . ومنخرىّ . تحت إبطىّ . داخل شعرى . فى سُرّتى وبين أفخاذى . تدلق سوائلها اللزجة . تصدر أصواتها المتنافرة . تلقى أوامرها بلا رحمة :

« وقّع هذه الأوراق . مزّق هذا الملف . أضف معلومة هنا . ورقمًا تسبقه عشرات الأصفار هنا . احنِ هذا الرأس - اليابس - امسح أفكارك الغريبة . غض نظرك عمّا ترى وتسمع . أخفض صوتك العنيد . قدّم الولاء والطاعة » .

تتعالى الأصوات حتى تتحول صراخًا باهظ القسوة . أحاول

الدفاع عن نفسى رغم أننى مبذور بلا حول ولا قوّة تحت الأكوام . لكنها بقوة تضاهى ألف حصان تنتهكنى .

يتفجر شبقها المجنون . تضاجعنى من كل الأمكنة . تؤلمنى . ترضرِض أطرافى . تسحقنى . لا تغادرنى إلا حين أصل أعلى درجات الإنهاك . وأتحول مجرد خرقة بالية ممزقة .

كان لابد أن أجد حلاً ينتشل ليلى من هذا النهش القاهر . ويعيد توازنى الذى بدأ يترنح بسبب قلة النوم وتشوّش تفكيرى الذى لم يعد يصب فى اتجاهاته المفيدة . أصابنى الهزال والارتباك حتى بدأت أخشى على نفسى من عاهة أو جنون محتوم .

أخذت إجازة لمدة أسبوع قضيتها أفكر . تحوّل رأسى إلى موتور يشقلبنى بدائرته فأبحث عن مخرج ملائم قبل أن تُطحن عظامى . شحذت كل طاقتى لأنجو . قاومت . تصبّرت تحمّلت .

فجأة ! هدأ كل شىء قبضت على قناعة - رغم سذاجتها - إلا أنها الحيلة المناسبة للخروج من المأزق .

إذًا : أنا رجل غير عادى . رجل مشبوه « بنظرهم » . وما هذه الكائنات سوى أشباحهم النهارية تتسلّط علىّ . حتى

تولّعت بى حقيقة . وعلىَ أن أبادلها الولع - فلا يُفترض بالمعشوق أن يرفض مداعبات وشهوات وأوامر عشاقه حتى وإن وصلت حد الأذى - على أن لا تمس القناعات المترسخة . سأعترف لكم بشىء غريب . منذ أن استسلمت لهذه القناعة التى قد ترونها باهتة وغير منطقية - توقف زحف الكائنات الحقيرة . وانتهى الذى يحدث كل ليلة .

زهرة تدخل الحىّ

دخلت زهرة الحى ذات ليلة . لا أحد يعرف من هى ! ولا كيف جاءت ! ولماذا جاءت ، ومن الذى استأجر لها هذا البيت الذى تطل شبابيكه على البحر . رغم هذا ، فُتحَ باب آخر من ناحية البحر . كانت زهرة تشرعه فى الليل . تجلس عند بابه . وتسهر . قال جيرانها إن زهرة تعشق البحر . تناجيه مناجاة الخليل للخليل ، تبثه أشواقًا دافئة . تغنى له . يسمعون لها صوتًا حنونًا ، أو صفيرًا ناعمًا ذا موجات كأنها لغة عصافير ضالة .

زهرة امرأة ناضجة فوق الثلاثين . جميلة لها وجه أبيض صاف مستدير . وخدان متوردان يكاد ينفر دمهما . وعينان سوداوان واسعتان يحرسهما حاجبان رقيقان أشبه بسيفين حادين . أما شعرها فينسدل شلالاً كستنائيًا يغطى أطراف كتفيها البضّين . وحين تبتسم زهرة تنفرج شفتاها عن صفين من اللؤلؤ الصافى . ويبرز فى أقصى فمها طرف سنة ذهبية سرعان ما يختفى حين تغلق الشفتين المكتنزتين .

زهرة جميلة . والحى هادئ وديع . بيوته الطينية لا تحمل صدى لأحقاد . الناسُ فى الحى متآلفون . حتى الحمائم على الأسطح تعرف أوكارها . ولا تتوه . ولا تتغرب . وحين دخلت زهرة الحى هلعت قلوب النسوة الآمنات . لعب الشك فى قلوبهن . ابتدأن السؤالات : هل هى متزوجة ؟؟

إذن ! لماذا تسكن وحدها ؟؟

هل هى أرملة أو مطلقة ؟؟

الخوف يزداد : أم تراها عذراء ستحافظ على نفسها وشبابها ؟

حين عبثت الشكوك والمخاوف فى القلوب . لم تعرف النسوة طريقًا لراحتهن إلا بيت « أم محمد » وقلب أم محمد الذى اعتاد أن يحضن هموم الحى . ويواسى كل مفجوع . ويبارك كل فرح . يزغرد لسانه وترقص شفتاه ، قلب أم محمد الذى لا يفرّق ، ولا يعرف الكره أو الحسد .

قالوا لها :

– يا أم محمد . زهرة فاتنة بابها مشرع للريح . زهرة تحب هواء البحر وأزواجنا فيه يعملون ، ونحن نخشى عليهم من الفتنة .

بان الضيق والأسف على وجه العجوز الطيب وعاتبت :

- تخفن على أزواجكن . ولا تخفن على بحركن .

- البحر للجميع يا أم محمد . زهرة تعشق البحر .

لمعت دمعة فى عين أم محمد . طاف حزن كأنه آت من البعيد :

- هل تحب زهرة البحر أكثر منا ؟؟ هل تعشق رمله ؟ وريحه ؟؟ وموجه أكثر مما عشقناها ؟؟ هذا البحر بحرنا . هو ذا أمامكم . اسألوه : من عشقَهُ ؟ كم قلبًا نهش . وكم قلبًا أسعد ! كم أخذ منا ؟؟ وكم أعطانا ؟؟ عظامُ رجالنا صارت له مجاديف ، وأعناقهم صوارى . بحرنا لا أحد يعشقه سوانا . أنتن لا تتأملن . تململت النسوة . قالت إحداهن :

- يا أم محمد جئنا نأخذ منك المشورة . ماذا نفعل مع زهرة ؟ كيف نحمى رجالنا ؟ وأنت هداك الله تتكلمين عن البحر . وكأنك تخشين أن تسرقه زهرة وتترك الرجال .

هزت أم محمد رأسها :

- هذا ما يتأجج فى قلبى لكنكن لا تعلمن . اذهبن إذن إلى زهرة . اجسسن نبضها . افهمن منها ماذا تريد . ولماذا جاءت ! وتفكّرن فى كل ما تقول .

* * *

رحبت زهرة بالنسوة ترحيبًا فاجأهن . قبّلت كل واحدة منهن وكأنها تعرفها من زمن بعيد . سألت كل واحدة عن أحوالها . تلك عن زوجها المريض وتلك عن ابنتها التى تعثر حظها . وسألت أخرى عن كنّتها التى لا تحبل . وقررت أن تصف لها علاجًا فرفرف الفرح على وجه المرأة . سألت عن « أبو يوسف » النجّار الذى بترت يده وقبع فى البيت وعن « شيخوه [1] » التى تبيح نفسها للرجال . وأكدت أن الشرف والفضيلة فوق كل شىء . آخر ما سألت عنه زهرة وبحرص شديد ، سألت عن « أم محمد » وهل ما زلن يلتفقن حولها وتصير شرايين قلبها أذرعًا تضم الجميع ؟ هل مازلن يحببنها ويؤممن دارها عند الشدائد والأفراح ؟ فوجئت النسوة بأن زهرة تعرف الشىء الكثير عن الحى ، وأهله .

بادرتها إحداهن :

- إذن هذا سبب اختيارك لحينا . سمعت عن ناسه الطيبين .

رفعت زهرة حاجبًا . وبكل الثقة قالت :

- فى كل مكان يوجد أناس طيبون . ليس هذا مقصدى .

(١) شيخوه : اسم علم لامرأة . وأصله « شيخه » .

سمعت أن الحياة هنا أرحب . جئت أبحث عن وضع أفضل .

قالت أخرى :

- أو ربما لأجل البحر .

أومأت زهرة بكفها :

- بالضبط . هواء بحركم يناسبنى .

- لكنّ الرطوبة عندنا شديدة . تتعب الصدر . وأنت تتركين الباب مشرعًا للريح طوال الليل . ألا تخشين من اللصوص أو الكلاب السائبة ؟؟

ضحكت زهرة باستخفاف :

- لصوص !! كلاب ! أنا أخاف . إذا جاء اللص أعرف كيف أتعامل معه . أما الكلاب ! فلها علاج آخر .

- يا زهرة . جئت وحيدة وما تزالين .

فهمت زهرة صيغة السؤال . ابتسمت :

- تركت زوجى . . وأولادى هناك ربما يأتون .

ارتطم الخوف بقلوب النسوة . إذن . لها زوج بعيد وهى جميلة .

وأزواجهن لهم عيون فتانة وأيضًا لهم طباع النمل الذى يمشى إلى « رائحة الدسم » .

وزهرة ! يا لها من امرأة !

أحست بما فى العيون من رعدات ، فتودّدت :

- أنا لا أحب الخروج . ولا الأسواق . ولا زحام الناس . أفضل أن أبقى هنا . ولكن !!

صمتت . لاح حزن على وجهها . تعاطفت بعض النسوة معها :

- لو بقيت هكذا ستشعرين بالوحدة . أنت غريبة . وصرت جارة نحن مستعدات لكل ما تطلبين . وإلاّ من أين ستعيشين ؟؟

تناغم الحزن فى صوت زهرة :

- هذا ما أفكر فيه . زوجى يتأخر حتى يرسل المال . لهذا أنا بحاجة للعمل .

تبادلت النساء النظرات وثارت السؤالات :

- ماذا بإمكانك أن تعملى ؟

- وأى عمل ستقوم به امرأة جميلة مثلك ؟؟

كان فى السؤالات كثير من الفضول . والقلق . والتشوق لمعرفة الجواب .

قالت زهرة :

- أنا أتقن أعمالاً كثيرة . التطريز . الخياطة . عمل الحلوى

وبعض الفطائر التى لا أظن أن حيكم يعرفها . وأيضًا أتقن كل ما يهمكن كنساء من أعمال الزينة . و « الحفافة [1] » ثم أنا امرأة أتقن لغة جديدة . قد أستطيع تعليمها لمن ترغب .

ترغبين إذن فى العمل بين البيوت ؟

– هذا ما أريد . أحتاج إلى المال كى أعيش . المال الحلال . وشددت على كلمتها الأخيرة لتبذر الأمان فى قلوب النساء . وتنهدن جميعًا ماسحات على صدروهن :

– « المرأة شريفة . . تريد العمل الحلال » .

* * *

عدّلت أم محمد من وضع « ملفعها [2] » الأسود الذى تفوح منه رائحة دهن العود . ومسحت على وجهها . قالت :

– انتبهن يا نساء يا طيبات الحى . . أيتها العيون التى لا ترى إلا الخير . الفتنة تدخل بيوتكن .

* * *

زهرة دخلت كل البيوت . زهرة الجميلة . أصبحت حديث الحى . سموها « هبّة الريح » لسرعة حركتها . وإتقانها كل عمل

(١) الحفافة : إزالة شعر الوجه والحاجبين .

(٢) ملفعها : غطاء الرأس لكبار السن من النساء ولونه أسود .

تنجزه . ارتدت نساء الحى أجمل الثياب . وتزينت « المطارح والمساند » بالتطاريز ، وبالترتر الملون . تجملت وجوه النساء بأصباغ . وتفننت زهرة فى تجديل شعورهن الطويلة . صارت كل البيوت تحب زهرة تطلبها وتكرمها . فكل النساء راضيات . زهرة ذكية . تحرص على ألا تحتك بأى رجل . لا من الأزواج . ولا من الأبناء . إذا دخل واحد منهم فجأة دون أن يتنحنح أو يطلب « دربًا » تثور زهرة ، يحتقن وجهها وتسب بكلمات غير مفهومة . تنتصر النساء لها يؤنبن الذى فعل . لا يُرِدْنَ أن تغضب زهرة . وتعاف بيتًا من البيوت . لكن حلم زهرة ظل أن ترى أم محمد .

سألت إحدى النساء :

- ألا تريد أم محمد أن أخيط لها ثوبًا ؟؟

قالت المرأة :

- أم محمد حريصة على ثيابها القديمة لا تستبدلها . ولا تفرط فيها .

- ألا أصنع لها مساند ؟؟ فطائر ؟؟

مساندها « السدو [1] » أغلى عليها من كل شىء وهى

---

(1) السدْو : أعمال اليد البدوية .

لا تحب الفطائر . تصنع بنفسها « قرص العقيلى » .

ذاب حلم زهرة صارت كل البيوت بيتها . إلا بيت أم محمد . ظل موصدًا .

ولم تثر زهرة أية مشكلة فى أى بيت . صارت محبوبة . كوّنت الصداقات . أصبحت الغريبة واحدة من أهل الحى . ونسى الناس الطيبون تساؤلاتهم ، نسى الناس بيت أم محمد . تحدّثوا عن زهرة . صارت هذه الزهرة كالبيت لهم . داخل أوراقها يستريحون . ومن شذاها يتنفسون ومن بريقها يستمدون كل جديد . وحدها أم محمد تمسح كفًّا بكف . ترى .. وتصمت .. وتردد : « لا حول ولا قوّة إلا بالله . »

* * *

حين تُطفأ الأنوار . ويغلق الليل عيونه . تشرعُ زهرة الباب . فيأتى هواء البحر منعشًا . تحمل رائحته عطرًا خاصًا تُلوّح زهرة بيديها الجميلتين . وحدها ساهرة عند الباب .. الناس نيام ..

وعيون أم محمد فى الفراش لا تنام .

* * *

ذلك النهار . لقى الناس فى بيت زهرة صبية جميلة . سألوها فقالت :

- هى أختى .

رحّبوا بها . غريبة جديدة . هى أخت زهرة المحبوبة . والحى الطيب يحب الضيوف ويكرمهم .

بعد أسابيع جاءت غريبة أخرى . استأجرت لها زهرة بيتًا على البحر .

- من هذه يا زهرة ؟؟

- هى ابنة عمى . مات عائلها . جاءت تبحث عن عمل .

وحين دخل البيت شاب جميل . يقف الصقر على زنديه قالت زهرة :

- لاتنزعجوا . إنه زوج أختى . يتقن أعمالاً كثيرة ولكن !

واهتزت قلوب النساء :

ماذا يا زهرة ؟؟

- يريد بيتًا قريبًا منى . ولا أجد .

لم يدم حزن زهرة أكثر من أسبوع . كان صاحب أحد البيوت يترك بيته ويؤجره .

كثر أقارب زهرة . يأتون . لا أحد يتساءل كيف يأتون .

وأى ريح تحملهم . الحى غارق فى طيبته . وفى الترحاب . اليدُ الآتيةُ « تسد العين » تعمل . تنتج . وتبدع . لا تكل ولا تتذمر . لا تكره أن تُؤمر فتطيع . الكل يشكر زهرة التى تكرمت على الحى . فيكرمونها .. أى بيت تختاره زهرة يفرغونه . للأنساب . ثم دفعت زهرة مبلغًا كبيرًا واشترت البيت . وحذا حذوها كثير من الأقرباء . امتدت بيوتهم على طول الساحل . ولكل بيت باب يشرع . لأن هواء البحر الذى يناسب زهرة يناسب كل الأقرباء والقريبات . الذين صاروا من أهل الحى . من صلب الحى . وأحبهم كل الحى .

وحدها أم محمد . تضرب كفًا بكف . ويبرعم الخوف فى صدرها تتنهّد :

« لا حول ولا قوة إلا بالله . لقد باعوا البيوت » .

استيقظ الحى ذات يوم على صدى النواح . كانت النساء الغريبات متشحات بالسواد . سيولاً .. تصب فى بيت زهرة . تساءل الحى ما الخبر ؟؟

جاء الجواب :

- مات لزهرة عزيز .

وفى بيت زهرة ولولت النسوة وضربن على صدروهن

وخارج بيتها سكن الرجال . وبكوا .

عشرة أيام متتالية والحزن الأسود يعرّش على الحى . حزن له لون خاص . وعطر خاص .

تعطل الحى . وقبعت نساؤه فى البيوت فكّرْنَ أن يذهبن لبيت أم محمد .

استقبلتهن وفى الخاطر عتاب :

- طالت غيبتكن .

- شغلتنا الحياة يا أم محمد .

- بل شغلتكن زهرة .

- نحن نحبك يا أم محمد . ولا نستغنى عنك . ولا عن مشورتك .

- ما الذى يقلقكن ؟

- الحى معطل . الرجال الغرباء على الساحل يبكون ، والنساء فى بيت زهرة يُولولن . لا نعرف معنى لهذا الحزن يا أم محمد .

- لتعرفن أن لكل حزنه ؟ أحزاننا غير أحزانهم . هذا العزيز الذى مات سيحزنون عليه كل مرة عشرة أيام . ونحن ندفن موتانا . نؤمنهم الله . ونترحم عليهم ونكره الحزن . والسواد .

- كل البيوت سوداء يا أم محمد .

- كانت بيوتكم لكنكم بعتموها صارت الآن لهم لا يحق لكم الاعتراض على ألوانها .

وتنهدت أم محمد .

سمعت النساء تنهيدتها تشق صدرها . وتفر إليهن . همسات تخرج من أفواه النساء . فيها ندم . . وفيها خوف وفيها تردد فى السؤال :

- ماذا نفعل يا أم محمد ؟؟

ومن قلبها نبعت أذرع حنان . شبكت النساء إلى صدرها . قالت ولغتها أغنية تصدح :

- أنتم أبناء حيى . أهلى . وناسى . أعرفكم فكونوا حذرين . أغلقوا البيوت دون كل غريب . واحضنوا البحر الذى من مائه تشربون .

بكت النساء

بكت أم محمد .

اختلط ملح الدموع . صار حبة لؤلؤ تُذكّر بوجه ذلك البحّار القديم الذى صنع السفينة .

* * *

منذ دخلت زهرة الحى . وعيون أم محمد ساهرة قلقة لكنها

الليلة غير كل الليالى . لقد جاءتها نساء الحى . وقد بدأت عصافير الخوف تبنى أعشاشها فى قلوبهن ، وقلوب رجالهن . جئن يفتحن القلب ، والجرح . فتسيل الأحزان وتفتق القلق أكثر فى عينى أم محمد .

هم ناسى .. وأهل حيى . هم أولادى . يأسفون بعد الخطأ يطلبون مشورتى .. وآه .....

صفقت كفًا بكف :

ما باليد حيلة يا عيالى .

حملها الأرق إلى البحر . هجمت على رمله . خلعت ملفعها وانسدلت ضفائرها الشائبة حبلاً حنونًا يود لو يضم الشاطئ كله إليه .

امتد بصرها الضعيف إلى البعيد . تذكرت زمنها الراحل . والدها الذى كان يأتى بعد سفر طويل يحمل رائحة البحر ضاحكًا لنصر .. أو عابسًا لفشل . وزوجها الذى تبع أباها وركب البحر . عشقًا ينتقل بالدم . تحس هواه يسرى مع النسمة داخلها . تتنشق روائح « الغاصة [1] » وتسمع صدى زغاريد

(١) الغاصة : الغواصين .

النسوة وفرحة العودة . المراكب البيضاء تلوح أشرعتها وترقص . من هنا كانت تجىء لا من هناك . والبحر واسع يتلألأ تحت شعاع القمر وعينا أم محمد تعانقانه . وتنزرعان فيه كأنها تصل إلى العمق . لونه تحت الضوء الحانى صافٍ . . وهى تتابع موجه تتابعه . . تتابعه . . و . . ماذا هناك ؟

عيناها تصطدمان بأشياء تتحرك .

استقامت أم محمد . لملمت جدائلها الشائبة وغرست النظرة الضعيفة صارت نظرة صقر . مراكب تدنو . ولا تصل . هى تراها تنزف خيالات متحركة . تندلق فى الماء . يتطاير الرذاذ . أسماك تلك أم حوريات ! أم تراها شياطين ؟ خفق قلبها . وانهار جسدها الطيب إلى الرمل ثانية . توسدت ذراعها . قالت :

- لن أتحرك سأرى ما الذى يجرى فى البحر . أى ريح تأتى وأى شىء تنزفه ؟ الخيالات تتحرك هارعة إلى الشاطئ . ثم خطوطًا خطوطًا . . إلى الأبواب المشرعة .

قناديل حمراء تتدلى تعابثها الريح الخفيفة وحين تدلف الخيالات تطفأ القناديل . وتغلق الأبواب .

* * *

فى الصباح . . وجد الناس باب بيت أم محمد مشرعًا . انهمروا إليه . . هم يعرفون أن أم محمد لا تشرع بابها إلا إذا كان لديها أمر تود الإفصاح عنه .

أعلنت أم محمد عن كل ما رأته . وانبلجت العيون خائفة غير مصدقة . لكن الناس ما اعتادوا منها الكذب . ولا الخداع . وهى أمهم الكبيرة . وهى القلب الأليف الذى إليه يهجعون .

كل الآذان أُشرِعَتْ للخبر الكبير . حتى آذان زهرة . والأقرباء . . ثارت . . ثاروا . . صرخت فى الناس :

- أم محمد خرّفت . . مجنونة . . تحلم . .

وصرخت مرة أخرى :

- إنها تتبلّى علىّ وعلى ناسى .

صدّ عنها الناس ، حملت جسدها الرائع وثورتها وذهبت إلى بيت أم محمد تبعها الأقرباء الكثيرون ملأوا الشوارع بالهياج . . وبالصياح .

وقعت عينا زهرة على بيت أم محمد .

هى المرة الأولى !

خرجت أم محمد هادئة . واثقة . مبتسمة . شعاع منير ينبع

من كل الوجه الذى اعتاد الطيبة . وعاش فى سلام . رفعت ذراعها لتوقف السيل . فتدلى كُمّ ثوبها المشغول « بالزّرى [1] » التمعت عليه أشعة الشمس . أثار وهجًا . نقاطًا ذهبية شعت فى المكان . وعلى الوجوه الحاقدة كسرت الأشعة العيون . لكنها لم تكسر اللسان . صرخت زهرة فى وجه العجوز بكلمات فاسقة . فوجئ أهل الحى . كأن الصرخة لطمت كل الوجوه ، تجمعوا حول أم محمد . حول جدران البيت الطينى التصقوا يحمونه . وبعضهم وقف سدًا .

شتمت زهرة . عيرت أم محمد بعجزها . عيرت أهل الحى الذين استكانوا وتعالوا . . عيرتهم بسواعد الأقرباء التى تعمل . . عيّرتهم بكل جديد جاءت به إليهم . عيّرتهم بأنها بأموالها غيّرت . . وبدلت فى الحى . وفى البيوت . . لم تأت أم محمد بحركة .

لم تبك .

لم تلطم خديها .

لم ترد على السباب . . ولا التجريح . كل ما يحدث

(١) الزّرى : خيوط القصب المذهبة التى تزين ملابس النساء .

أمامها . . وما يقال . كانت تعلم أنه سيحدث . لكنها لم تستطع أن تقنع الناس به .

النساء باهتة وجوههن ، والرجال كاظمون الغيظ ولكن ! حين صرخت زهرة مهددة :

- سأطردكم من هذا الحى .

اشتعلت الثورة فى النفوس . صرخوا بصوت واحد :

- سنطردك يا زهرة .

هزت ضحكتها المكان .

تطلع الناس إلى وجه أم محمد الباكى بصمت . . تابعوا نظرتها الحزينة .

كانت تعد البيوت الممتدة على الساحل . . وتابعت كل العيون . . . كل البيوت . . كلها . . ليست لهم . . .

وهزّت أم محمد رأسها .

الفهرس

صدر من هذه السلسلة

1- عيون الغرباء .... فتحى غانم
2- السرداب رقم ٢ .... يوسف الصائغ
3- حكايات للأمير .... يحيى الطاهر عبد الله
4- مجنون الورد .... محمد شكرى
5- نجمة .... كاتب ياسين
6- نهر المجرة .... عبد الوهاب البياتى
7- السد .... محمود المسعدى
8- بناية ماتيلد .... حسن داوود
9- سرير لعزلة السنبلة .... محمد الأشعرى
10- حجر الضحك .... هدى بركات
11- سأهبك غزالة .... مالك حداد
12- الخماسين .... غالب هلسا
13- حزن فى ضوء القمر .... محمد الماغوط
14- مختارات .... وديع سعادة
15- سباق المسافات الطويلة .... عبد الرحمن منيف
16- دعوا الشقاء سالمًا (مختارات) .... عباس بيضون
17- أف ! (مختارات) .... زكريا تامر
18- مجنون الحكم .... بنسالم حميش

من أعدادنا القادمة

* مزامير سميح القاسم . . . . .مختارات شعرية
اختيار وتقديم : جابر بسيونى
* أباريق البلّور - يوميات صحراوية . . . . محمد القيسى
* نشيد البحر . . . . عبد الله خليفة
* ديوان محمد سعيد العباسى . . . . محمد سعيد العباسى
* الجداول والخمائل . . . . إيليا أبو ماضى

آفاق عربية

يلاحظ على هذه القصص المختارة تنوّع الموضوعات ، التى تكون المرأة فيها محورًا اجتماعيًا ونفسيًا ، راصدةً بذلك وظيفة المرأة فى مثل هذه البيئات التى يكون التقليد فيها حاكمًا وآسرًا ، وللعادة الاجتماعية شكل الطقس المقدس ، فضلاً عن نمنمات فى السلوك ، وأساليب الحياة . وتطلعات الأنث
إلى حياة تصبح فيها كيانًا فاعلاً ومؤثـرًا

الثمن : جنيهان

الشركة الدولية للطباعة